9me Année No. 423 — Lundi - 11 - 8 - 1941

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــدد ٤٢٣ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٨ رجب سنة ١٣٦٠ — الموافق ١١ أغسطس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

الرحمـــــة قوة

للأستاذ عباس محمود العقاد

« ... وبعد فإنى أحد دارسيك ، ومن طليعة المعجبين بغزارة علمك وقوة أدبك وسموه ، ووفرة إنتاجك وتنوعه ، لهذا لا أحسبنى متطفلاً إذا ما سألتك سؤالاً فى موضوع طالما فكرت فيه ، وهو : أصحيح ما يقال إن الرحمة من أخلاق الضعفاء ، وإنها أبعد الصفات عن الأقوياء ، وإن الإنسان كلما ازداد قوة ازداد قسوة ؟ ... فهل تتفضل يا سيدى بالإجابة على سؤالى هذا على صفحات مجلة الرسالة الغراء لأننى من المدمنين قراءتها ؟ ولك منى جزيل الشكر سلفاً ... »

بغداد — شارع الرشيد عبد الكريم جواد المحامي

* * *

وجوابى على سؤال الأستاذ الفاضل أن الرحمة قوة وليست بضعف ، لأن الرحيم يعطى من فيض نفسه من يحتاجون إلى رحمة ، ولا تملك النفس فيضاً تعطيه إلا وهى ممتلئة تستغنى عن جزء من ذخيرتها لإسعاف غيرها . وليس هذا من شيمة الضعفاء والرحمة كلاءة ورعاية ، ومن يكلأ غيره ويرعاه فليس هو بالضعيف

وينبغى أن نرجع إلى الطبيعة ، لنعلم ما هو طبيعى

ينبغى أن نرجع إلى الطبيعة لنعلم الخلق الأصيل والخلق الذى هو عاهة طارئة أو نقص كين

والطبيعة تقول لنا إن الرحمة ركن من أركانها فى أداء غرض من أهم أغراضها ، بل هو أهم أغراضها على الإطلاق ، وهو حفظ النوع وتجديده ، وتعهد الأبناء الصغار إلى يوم استغنائهم عن معونة الأولياء الكبار

فكل والد رحيم بغير اختياره : رحيم باختيار الخالق الذى خلقه وسخره لحفظ نوعه

وكيف يقال إن الطبيعة تعتمد على الضعف فى طلب البقاء؟ أو تعتمد على الضعف فى غريزة أصيلة يوشك أن يتلاقى فيها الإنسان وسائر الأحياء ، ممن صعد ولو قليلاً على سلم الارتقاء؟

لو قلنا إن القسوة عجز وليست بقوة لما أخطأنا الدليل على ذلك من طبائع الأحياء التى عهدت فيها الضراوة وخلت طبائعها من الرحمة وما يماثلها

فإن الوحوش المشهورة بالقسوة لا تعرف وسيلة غير البطش والضراوة لتحصيل العيش ومكافحة الأعداء ، وكل بطش فهو إلى القوة الآلية أقرب منه إلى الخصال النفسية والملكات العقلية .

فالفرق يسير بين صدمة الحجر وضربة الوحش من هياجه ، فهى — أى القسوة — أدنى الوسائل التى لا وسيلة دونها ، ثم تترقى وسائل الأحياء درجة بعد درجة حتى يكون استغناؤها عن القسوة بمقدار ارتقائها فى تلك الدرجات

ومن ثم يصح أن يقال إن القسوة عجز وفقدان وسيلة ، وإنها من البدائيات التى يوشك أن تلحق بالآلة والجماد

فالإنسان يقسو لأنه عاجز عن الرحمة ، ولا يناقض قولنا هذا قول المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

فإن بيت المتنبي معناه أن الظلم أيسر الوسائل وأقربها : أيسرها لمن لا يتيسر له ما هو أصعب منها . وهذا هو بعينه ما نذهب إليه حين نقول إن القادر على الصعب لا يهبط إلى ما دونه ، وإن القادر على الرحمة مستغن عن التقتيل والتخويف

إن الماء لا يحتاج إلى تدبير وإتقان لينحدر من الأعلى إلى الأسفل

ذلك هو أيسر الطرق أمامه وأقربها إليه ؛ ولكنه محتاج إلى التدبير والإتقان ليصعد من الأسفل إلى الأعلى

فالظلم كانحدار الماء قريب ؛ والرحمة كارتفاع الماء صعب ولكنه أدل على الاقتدار

* * *

ومن آيات الطبيعة التى نستفيدها منها فى هذا المعنى أن الرحمة تزداد فى الأحياء كلما ازداد الشبه بينها وبين الإنسان فى الغريزة الاجتماعية

فالرحمة معروفة بين الحيوانات الاجتماعية فى العلاقة بين والدها ومولودها ، وفى العلاقات بين الفرد منها وسائر أفرادها ، وفى العلاقات بينها وبين الآدميين

ومؤدى هذا أن الرحمة وغريزة الاجتماع متلازمتان ، فكيف تكون مرضاً وهى أصل من أصول الأخلاق الاجتماعية ؟ وكيف يتركب فى البنية ما هو مرض أو انحراف مناقض لأساس التكوين ؟

على أننا خلقاء أن نميز بين الرحمة وبين الاضطراب الجسدى الذى يعجز صاحبه عن احتمال المؤلمات والمشقات ، فيخور ويبكى حين يرى ما يؤلم أو يتعرض لما يشق عليه . وليس من الضرورى مع هذا أن يرحم المتألم أو يعينه أو ينفعه بعطفه ، وإنما هو عجز عن احتمال الآلام المشهودة كالعجز عن احتمال الهواء والاضطلاع بالمتاعب ، وبين الرحمة وهذا النقص بون بعيد

إن المرأة الهستيرية التى يغشى عليها حين ترى جريحاً يتألم ، ليست بأرحم لذلك الجريح من الطبيب الذى يفتح جراحه ويزيده ألماً على ألمه

فالذين يزعمون أن الرحمة ضعف أو مرض ، إنما يلتبس عليهم الأمر بين هذه الحالة الهستيرية التى هى ضعف ، وبين الرحمة التى هى قوة ، لأنها حماية لضعف الآخرين

وإن الرجل الذى يبطش بالضعفاء لأقوى من الضعفاء ؛ ولكن أقوى منه وأرجل منه وأرفع منه ذلك الرجل الذى يغلب الأقوياء لينقذ الضعفاء من أيديهم ، ويريهم قوة أكبر من قوتهم ، لأنها لا تكتفى بالقسوة على الضعيف ، ولا تحجم عن زجر القوى ، وزجره أحوج إلى القوة وأدل على الاستغناء

وإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول فى الدنيا على رجل

نعم ، وأرجل منه من يعول كل الرجال عليه ، ومن يبسط جناحيه على كل من حواليه

* * *

وآية أخرى من آيات الطبيعة فى هـذا المعنى أنك لا تجد مزدرياً بالرحمة إلا وهو محتاج إلى رحمة الرحماء

« فردريك نيتشه » : رسـول القسوة وأكبر الناعين على الرحمة فى العصور الحديثة ، قد عاش سنوات ولا سند له فى الحياة غير رحمة امرأة عجوز ، وهى أمه !

وروى عن الوزير ابن الزيات أنه كان يقول : إن الرحمة خور فى الطبيعة . فلما نكب وعذب بالتنور الذى كان يعذب به الناس إذا به يرثى لنفسه ويستدعى الرثاء لما ويجرى فى ضعفه أمثولة لمن يسترحمون الأقوياء والضعفاء ، و « لم يزل ـ كما جاء فى الطبرى ـ أياماً فى حبسه مطلقاً ، ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع عن الطعام ، وكان لا يذوق شيئاً . وكان شديد الجزع فى حبسه كثير البكاء قليل الـكلام كثير التفكر ... وكان قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه : يا محمد يا ابن عبد الملك ! لم تقنعك النعمة والدواب الفُرْه ، والدار النظيفة ، والـكسوة الفاخرة ، وأنت فى عافية ، حتى طلبت الوزارة ! ذق ما عملت بنفسك ... »

ومن شوهد عليهم من القساة أنهم كانوا أصلب من ذلك عوداً وأخشن مساً وأقرب إلى التمرد والعتو والأنفة من الشكوى فكثيراً ما يكون تمردهم ضرباً من التخبط ، أو عرضاً من أعراض التشنج ، أو ثورة عصبية هى مرض لا شك فيه كمرض الخنوع والولع بالشكاية وإن اختلف مظهرهما كاختلاف النقيضين

فالذى نراه من المشاهدات الطبيعية أن القسوة هى العجز والمرض والنقصان ، وأن الرحمة هى القدرة والفضل والزيادة

فالرحيم عنده ما يكفيه ويزيد على كفايته حتى يكفى غيره ويتناوله بالعناية والحماية !

والقاسي عنده من القوة ما يغلب به الضعيف ، فهو فى الدرجة التالية من الضعف ليس دونه فى مراتب القوة إلا فاقد القوة والعاجز عن كبحها

وهذا بلا ريب غير قسوة الرحمة التى يقول فيها حكيم الشعر العربى :

وقسا ليزدجروا ومن يك حازماً   فليقس أحياناً على من يرحم

فالرحيم الذى يقسو هنا لينفع بقسوته من لا تنفعهم رحمته ، إنما هو أرحم وأقدر على الرحمة ، لأن رحمته لا تغلبه ولا تقوده غير واع ولا مقدر حتى يصنع باسم الرحمة ما هو نقيضها أو ما هو قسوة معيبة فيما تنتهى إليه من الإيذاء

وكفى بالرحمة أنهـا فتح إنسانى فى عالم الحياة ، ترق إليها الإنسان وحده بين المخلوقات الحية ، وشابهته فيها بمقدار ما صمدت بهم الطبيعة فى مرتقاه .

عباس محمود العقاد

كيف يكتب التاريخ؟ (*)

للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ١ —

مقدمة

الشرق القريب — ومصر على وجه الخصوص — حديث العهد جداً بدراسة موضوع طريقة البحث التاريخي وكتابة التاريخ بالمعنى العلمي الحديث؛ وكلية الآداب بالقاهرة تكاد تبدأ هـذا النوع من الدرس الذي أرجو أن يتسع ويطبق عملياً في المستقبل القريب. وفي صيف ١٩٣٩ أصدر صديق الدكتور أسد رستم كتاب «مصطلح التاريخ» نتيجة خبرته في تدريس طريقة البحث التاريخي سنوات عديدة في جامعة بيروت الأمريكية. وابتداء من نوفمبر ١٩٤٠، أخذ الدكتور محمد مصطفى زيادة الأستاذ المساعد لتاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بالقاهرة ينشر سلسلة من المقالات بمجلة «الثقافة» عن صناعة التاريخ في مصر، فرأيت أن أساهم أيضاً — بعد أن فتحت لي «الرسالة» صدرها الرحيب — بنشر بعض مقالات عن هذا الموضوع، لاحتمال تقديمه بعض النفع للراغبين في دراسة وكتابة التاريخ. ولإعطاء القارئ فكرة عن طريقة كتابة المؤلفات التاريخية التي يتداولها؛ والتاريخ لا يدرس عفواً، ولا يكتب اعتباطاً؛ وإنما يدرس لأغراض وفوائد، ولا بد لكتابته من استعداد خاص ودراية وخبرة بطريقة البحث التاريخي

ولماذا نحاول الوصول إلى الحقيقة التاريخية؟ وما الذي نستفيده من دراسة التاريخ؟ لكي نصل إلى نتيجة معقولة، فلنبحث أولاً فيما هو التاريخ؟ فكلمة تاريخ مستمدة من اليونانية بمعنى بحث واستقصاء حوادث الماضي، أي تسجيل حوادث الإنسان منذ ظهر في الوجود، ومنذ بدأ يترك آثاره ومخلفاته على الصخر وعلى الأرض، حتى الوقت الحاضر. ونحن إذا تصفحنا أي كتاب عام عن تاريخ العالم، نجد أنه يتناول أوجه النشاط الإنساني المتنوعة في الزمن الماضي، فيشرح حوادث الحروب ومشاكل السياسة ومسائل الدين والفن والاقتصاد... وهو يحاول بذلك أن يعطي صورة للمجتمع الإنساني في حالة حركة مستمرة؛ وهي حركة لا تتكرر ولا تعيد نفسها على نفس المنوال وفي نفس الظروف التي حدثت بها في فترة سابقة. نعم إنه قد تقع حوادث متشابهة، ولكن تشابهها لا يمكن أن يكون مطلقاً؛ والإنسان يجب أن يعرف تاريخه ككائن اجتماعي، فينبغي أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ آثاره في الزمن الماضي. وينبغي أن يدرس العوامل التي أدت إلى حدوث الثارات والحروب، وما لابس ذلك، وما خلفته من آثار؛ وأن يتبع مثلاً حركة الكشف الجغرافي في أواخر القرن الخامس عشر، وما ترتب عليها من تغيير طريق التجارة العالمي، وما ارتبط بذلك من هبوط سلطنة المماليك وجمهورية البندقية، وارتفاع شأن دول غرب أوربا كالبرتغال وهولندا وانجلترا؛ وأن يدرس الأسباب التي أوجدت

(*) المقصود بهذه المقالة وما يليها عرض موجز لدراسة طريقة البحث التاريخي، بدون التعرض لفلسفة التاريخ ولتطور كتابته في الشرق والغرب؛ وقد أعود إلى ذلك في المستقبل. وإني أقدم بعض المراجع لمن يرغب المزيد فيما نحن بصدده الآن:

١ — أسد رستم: مصطلح التاريخ، بيروت، ١٩٣٩
٢ — ابن خلدون: المقدمة، القاهرة، ١٩٣٠
٣ — السخاوي: الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق، ١٣٤٩هـ
٤ — هرنشو، ترجمة وتعليق الأستاذ عبد الحميد العبادي: علم التاريخ، القاهرة، ١٩٣٧
٥ — الدكتور مصطفى زيادة: صناعة التاريخ في مصر، مجلة الثقافة، أعداد ٩٧، ١٠٠، ١٠٥، ١١١
٦ — Fling, F. M. : The Writing of History, An Introduction to Historical method. Yale, U. S. A., 1926
٧ — Oman, Sir Ch. : On The Writing of History, London, 1939
٨ — Freeman, E. A. : The Methods of Historical Study. London, 1886
٩ — Acton, Lord J. E. : Lectures on Modern History. London, 1930. (pp. 1-28 ; On the Study of History)
١٠ — Emerson, R. W. : Essays. Oxford, 1927
١١ — Langlois, Ch. V. & Seignobos, Ch. : Introduction aux Etudes Historiques. Paris, 1898 — English Trans. by G. B. Berry. London 1912
١٢ — Feuter, E. : Histoire de l'Historiographie Moderne. Paris, 1914
١٣ — Croce, B. : Teoria e Storia della Storiografia. Bari,1920. English Trans. by D.Ainslie. London,1921
١٤ — Croce, B. : Primi Saggi. Bari, 1927. (pp. 1-72 : La Storia ridotta sotto il concetto generale dell'arte, e Illustrazioni e Discussioni)
١٥ — Croce, B. : Conversazioni Critiche, 4 vol. Bari, 1924-1932. (V. 1. pp. 153-224 : Teoria della Storia, e Storia della Cultura) — (V. 4. pp. 115-163 : Metodologia Storica)
١٦ — Pecchiai, P. : Manuale Pratico per gli Archivisti. Milano, 1928.

نوعاً جديداً من الأدب أو الفن وما إلى ذلك من أوجه النشاط الإنساني ومقومات الحضارة

وحوادث التاريخ هي من صنع الإنسان في ظروف معينة ؛ فينبغي أن يقرأ الإنسان وأن يدرس هذا التاريخ ؛ فالعلاقة وطيدة بين حياة الإنسان وبين القرون والعصر الماضية. ولا يمكن للانسان أن يفهم نفسه وأن يفهم الحاضر بدون الماضي ؛ ومعرفة الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة ؛ والتأمل في الماضي يبعد الإنسان عن شخصه ، فيرى ما لا يراه في نفسه بسهولة من مزايا وأخطاء الغير ؛ ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه وأقدر على حسن التصرف في الحاضر وفي المستقبل . ولكي ندرك أهمية معرفة الماضي ووجوب دراسة التاريخ ، فلنفرض أننا استطعنا بوسيلة ما أن نقطع صلتنا بالماضي نهائياً ، وأن نحرق دور الكتب وأن ندمر كل آثار العمران الراهنة ، وأن ننسى أنفسنا ؛ فماذا تكون عليه حال الإنسان وحال الحضارة ؟ لا بد للانسان في هذه الحالة من أن يعود ليبدأ من جديد ما كان قد بدأه منذ آلاف السنين من أوجه النشاط المختلفة لكي يصل إلى النقطة التي قطع فيها صلته بماضيه التاريخي ، أو إلى ما يقاربها . فماضي الشعوب وماضي الإنسان حافل بشتى الصور ، وهو عزيز عليه في كل أدواره ، سواء عهود المجد والقوة ، أو فترات المحن والكوارث؛ والأقوام الذين لا ماضي لهم ليسوا من شعوب الأرض المتحضرة . ومتى اقتنعنا بوجوب معرفة التاريخ والاستفادة منه ، فينبغي إذاً أن يكتب هذا التاريخ ، ويجب أن يتخصص لكتابته بعض الناس من أصحاب الاستعداد.

وليس كل من يحاول أن يكتب التاريخ يصبح مؤرخاً . فالمؤرخ ينبغي أن تتحقق فيه الصفات اللازمة لكل من يشتغل بالعلم . ومن بين هذه الصفات أن يكون محباً للعمل جلداً صبوراً فلا تمنعه وعورة البحث ولا المصاعب والعقبات مهما كان نوعها عن مواصلة البحث ، ولا توقفه ندرة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الحقائق التاريخية واختلاطها ، فيقضي الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد إلى آخر بحثاً عن الحقيقة . ويلزم المؤرخ أن تكون له ملكة النقد ، فلا يقبل أي كلام ، ولا يصدق أية وثيقة إلا بعد الدرس والاستقراء ، فيأخذ الصدق والحق ويطرح ما دون ذلك . والمؤرخ لا بد أن يكون مخلصاً أميناً شجاعاً ، فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق ، ولا يخفي الحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان ، والتي قد لا ترضيه أو لا ترضى قومه ؛ فإنه لا رقيب عليه غير ضميره . والمؤرخ ينبغي أن يكون بعيداً عن حب الشهرة ، وألا يحفل بالكسب وبالألقاب وبالجاه ؛ فإن الحقيقة التاريخية التي قد يكشف عنها تعدل كل ذلك أو تزيد . والمؤرخ ينبغي أن يكون قوي الشخصية ، فيستطيع أن يكون آراءه بناء على الواقع التاريخي ، ويعرضها علينا ، فنلمس شخصيته خلال السطور . والمؤرخ ينبغي أن يكون صاحب إحساس وعاطفة وتسامح وخيال؛ فيدرك آراء الغير ونوازع الآخرين ، ويحس ما جاش بصدور الناس من شتى العواطف ، ويفهم الدوافع التي حركتهم في اتخاذ سلوك معين في الزمن الماضي ، ويشارك رجال الأمس مواقفهم في ساعات التاريخ الفاصلة ، في فترات الانقلاب ، وفي عهود المقاومة العنيفة ، وفي ظروف النجاح والفشل ؛ لأن المؤرخ المجيد يجد في كل هذه الحوادث صدى نفسه ، فتتجلى فيه روح العلم والفن، ويبعث التاريخ حياً ، ويحيا في التاريخ ، ويعيش التاريخ

وإذاً فما هو الطريق الذي نتبعه لكتابة التاريخ ؟ وما هي طريقة البحث التاريخي ؟ طريقة البحث التاريخي عبارة عن العملية والمراحل التي يصل خلالها الباحث إلى الحقيقة التاريخية ، بجمع الأصول والمصادر ، ودراستها ونقدها ، واستخلاص الحقائق وتنظيمها وعرضها عرضاً تاريخياً معقولاً . إنما نلاحظ بأنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية إمكان الوصول إلى معلومات صحيحة على الإطلاق ؛ فالحقيقة المطلقة غير مستطاع الوصول إليها فيما يتعلق بالوقت الحاضر فضلاً عن الماضي ، لظروف مختلفة كالأغراض والمصالح ، أو لضياع الأدلة وانطماس الآثار . فالحقيقة التي يصل إليها الباحث في التاريخ صحيحة نسبياً ، وكلما زادت نسبة الصدق وكبر عنصر الحقيقة أصبح التاريخ تاريخاً بالمعنى الصحيح

وإن من يدرس العلوم الطبيعية يستطيع أن يشاهد بنفسه التغيرات والتحولات التي تصيب المادة في معمل التجارب . إنما دارس التاريخ لا يستطيع أن يضع الحوادث أمامه في بوتقة التجارب ؛ ولا بد له من وسائل أخرى تؤدي به إلى الغرض . فينبغي أن تتوفر لديه الأصول والمصادر التي يستخرج منها

الحقائق التاريخية . وهذه المصادر عبارة عن آثار ومخلفات الإنسان ، وهي على أنواع مختلفة ؛ فمن ذلك بقايا جسم الإنسان نفسه ، وملابسه وطعامه ومساكنه وأسلحته وأدواته التي كان يستخدمها أثناء حياته ، ونقوشه على الأحجار وكتبه المخطوطة والمطبوعة ، وصوره ورسومه وتماثيله ومبانيه ، ولغته وآدابه وقوانينه وعاداته وتقاليده . وآثار الإنسان كلها تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ ؛ وهي تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها ، إلى أن يتمكن الإنسان بالدراسة الطويلة ، وبالتأمل العميق من أن يحملها على النطق ، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها . وينبغي ألا يفوتنا أن بعض آثار الإنسان تشيد للمبالغة والتعظيم ، مثل أقواس النصر التي أقامها نابليون في بعض الولايات الألمانية ، والتي لا تدل على أنه قد أصبح سيد أوربا على الدوام ، أو المدالية التي ضربها تذكاراً لنزوله في انجلترا ، مع أن ذلك لم يحدث تاريخياً ؛ فهذه المدالية ستبقى كذكرى لأمل لم يتحقق . أو تمثال الرجل الذي يقتل الأسد ، مع أن ذلك لم يحدث إلا نادراً ، والعكس هو الشائع . ولو استطاع الأسد أن يصنع تمثالاً لفتكه بالإنسان لصح الوضع . وأحياناً قد يعثر الباحث في التاريخ على وثائق مزيفة ومنتحلة ، سواء بقصد الدعاية أو الدفاع عن فكرة معينة أو من أجل الشهرة أو للاتجار والكسب . وعلى ذلك ينبغي أن تدرس آثار الإنسان بروح النقد والحذر

وتتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الأسس العامة . فأولاً نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته ، هل هي أصول original sources أو هل هي نقوش قديمة معاصرة وثبت صحة معلوماتها ، أو هل هي وثائق ومراسلات سياسية مستخرجة من دور الأرشيف وثبت أنها غير مزيفة وأن معلوماتها صحيحة ، أم أن المادة التي جمعها الباحث مستمدة من مجرد مراجع ثانوية ليست لها قيمة كبيرة . وثانياً قدرة الباحث على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر . ويختلف الباحثون في النقد وفي استخلاص الحقائق على حسب اختلافهم في الفهم والتفسير والاستنباط . وأحياناً يضع الباحثون في التاريخ افتراضات مختلفة لمحاولة فهم حركة تاريخية مهمة مثل حركة النهضة في إيطاليا أو الثورة الفرنسية . وأحياناً يختلف الباحثون في تقدير معنى الحوادث من ناحية السياسة أو الخلق . وأحياناً يكتبون متأثرين بروح العصر السائدة مثل حركة الانقلاب الصناعي أو نمو الديموقراطية في أوربا ؛ إنما كل هذه الاختلافات ضرورية لأنها تقدم آراء ووجهات نظر مختلفة عن عصر معين ؛ وهي تعطي للتاريخ الحركة والحياة ، وتجعل البحث التاريخي مستمراً بنشاط . وعلى العكس ، عدم الاختلاف بسبب الجمود والركود . وثالثاً مطابقة التاريخ للواقع ، وبعده عن التحيز والأهواء والنوازع المختلفة ؛ فلا تعتبر تاريخاً صحيحاً الكتابة التي يطعن فيها مسيحي على المسلمين في زمن الحروب الصليبية ؛ أو العكس ، فالكتابة التي تخدم غرضاً معيناً قد تعتبر تاريخاً لنوع من التفكير أو النوازع الإنسانية ، وإنما لا يمكن أن يعتبر ما جاء بها معبراً عن الحقيقة التاريخية بالنسبة لما تناولته من الموضوعات

وبمعنى آخر يمكننا أن نقول إن قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناء على ملكات الباحث في التاريخ واستعداده ، وبناء على مدى ثقافته ، وعلى درجة إلمامه بطريقة البحث التاريخي . وكثير من كتب التاريخ تعتبر من أمتع ثمرات العقول ، لنضوج عقلية المؤرخ ، وخبرته الوطيدة ، ونجاحه في إعطاء وحدة جامعة واضحة ، بعكس الكثير من كتب التاريخ أيضاً التي يكتبها من لا يفهم التاريخ ، ومن لا يملك ملكة النقد ؛ فلا تزيد عن مجرد معلومات موضوعة بين دفتي كتاب . ومثل هذه الكتب غير جديرة بأسمائها ، وهي قد لا تساوي الورق الذي طبعت عليه .

(يتلى) حسن عثمان

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد السنوسي

إخصائي الحالات النفسية

مؤلف يبحث على ضوء العلم الحديث فيما هي فوائد علم الكف . الكف والمؤثرات النفسية . كيف تكشف خطوط الكف عن استعدادات المرء التي تمكنه من النجاح في الحياة

قيمة الاشتراك قبل الطبع ٣٠ قرشاً وثمنه بعد الطبع ٥٠ قرشاً وقد مد أجل الاشتراك إلى ١٥ سبتمبر المقبل كرغبة الكثيرين ، وترسل الاشتراكات إلى مكتبة الأنجلو ٣٣ ش قصر النيل ، أو لجنة الرسالة ٨١ ش السلطان حسين ، أو للمؤلف ٣٣ ش اللكة فريدة .

بمناسبة الغارات الجوية على الاسكندرية :

دار الوجد والمجد

للدكتور زكى مبارك

[لو عاش « شوقى » إلى أن شهد ما تعانى الاسكندرية من كوارث وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ . فالى روحه فى دار الخلود أهدى هذا القصيد]

زكى مبارك

بأهلِ اسكندريةَ بعضُ ما بى ... من الأحزانِ للثغر المصاب
أدارَ هَواىَ ما قلبى بناسٍ ... هُيامى فوق أثباجِ العُباب
وهل يَنسى أخو كرمٍ وعهد ... رحيقَ الراحِ يُمزجُ بالرُّضاب ؟
فإن تكن الكوارثُ آثماتٍ ... صببْنَ عليك أسواطَ العذاب
فلن ينسى لك التاريخُ عهداً ... ضحوكَ الوجه مرهوبَ الجناب

* * *

حَماكِ اللهُ يا دارَ التنادى ... إلى الهيجاء أو دارَ التصابى
ألم تمرح بساحتك الجوازى
لَواعبَ فى حمى الأُسْدِ الغضاب (١)
ألم تُلْقِ مع الأقدار يوماً ... كتائبَ من لحاظ أو حراب ؟
وكيف يطيبُ للدنيا وُجودٌ ... إذا هُدِّدتِ ظلماً بالخراب ؟
وأين تجولُ أفراسُ المعالى ؟ ... وأين تصول أحلامُ الشباب ؟

* * *

عروسَ البحر، والدنيا سفينٌ ... تروِّع بالقواصف والضباب (٢)
أعندكَ أن دارَ المجدِ تنجو ... على الأيام من كُرَبِ الصِّعاب ؟
أعندك أن فى الدنيا رياضاً ... تصان من الأفاعى والذئاب ؟

* * *

عروسَ البحر، ما هذى الرزايا ... تصب على بنيك بلا حساب ؟
أكنت جنيت ، والدنيا مجالٌ ... لمفروض الثواب أو العقاب ؟
جمالكِ فاتنٌ، والحسن ذنبٌ ... لأهل الحسن فى شرع الذئاب
فما شكواكِ من ظلماء طالت ... وتلك جناية المجدِ اللباب ؟

* * *

(١) الجوازى هى الظباء لاجتزائها بالعشب عن الماء

(٢) القواصف هى الرياح التى تثور فى البحر . أما العواصف فهى الرياح التى تثور فى البر

عروسَ البحر ، يا مهوى فتونى ... ويا مَغْنى أمانىَّ العِذاب
عُقلتُ بأرضك العزّاء عاماً ... فكان أعز عام فى شبابى (١)
دخلتُك عانياً فى أمر ليل ... أصمَّ القلب زنجىِّ الإهاب
فأقبلَ نورك الروحىّ يسرِى ... إلى أرواحنا من كلِّ باب
رأى العقّالُ أن نحيا أسارى
حياةَ السيف فى سُدَفِ القِراب (٢)
فلا ندرى لوجه البحر لوناً ... سوى الوهوم من لمع السراب
ولا نقتات من زاد الأمانى ... سوى الظنون من يوم المآب
فهل سمعَ الشقىّ بما أفاءت ... علينا اسكندرية من ثواب ؟
هديرُ البحر كان يهيجُ عمداً ... ليطربنا على بُعْد المثاب
وحَبُّ الرمل صار لنا مهاداً ... مُطرَّزة بأزهار الروابى
فأمسى الاعتقال على اجتواه ... رخىَّ القيد مأنوس الرحاب (٣)

* * *

عروس البحر، حدثنى شهودٌ ... بأن الشط صارَ إلى تباب
فلا غيداء تَخطرُ فى حِماهُ ... كرقص البدر من خلف السحاب
ولا صبٌّ تخورُ المهد يمشى ... على جنباته مَشْىَ الحباب
ولا صهباء يحتسُوها بنوهُ ... وقد قُبست من الذهب المذاب
إذا طافتْ بهم هاموا نخفّوا ... لِمقبول المجانة والدعاب
وأمسوا والكواكب فى عُلاها ... لهم أسلابُ فتكٍ وانتهاب
سُلافٌ صانها « باكوسُ » عما ... يشوبُ الراحَ من إثمٍ وعاب (٤)
ألمْ يثقل على حُكماء قومى ... وقد عاقرتُها وِزْرُ اغتيابى ؟

* * *

أميرَ الشطّ كنتُ فأين عهدى ... برعْى الحسن فى الشطّ العُجاب
وأينَ رِمالهُ منى وكانتْ
مناسِكَ صَبْوتى فى كلِّ (آب) (٥)

(١) العزاء هى الأرض الصلبة ، وكان موضع الاعتقال فى بقعة جرداء بناحية « سيدى بشر » قبل أن تصبح تلك الناحية من ملاعب الصيف

(٢) العقال على وزن سجان هو حارس المعتقلين ، والسدف جمع سدفة بالضم وهى الظلمة ، والقراب بكسر القاف هو الغمد

(٣) الاجتواء : البغض

(٤) باكوس هو إله الخمر عند اليونان ، وبه سميت ضاحية كبيرة من ضواحى الاسكندرية

(٥) آب : شهر أغسطس ، وهو أم شهور الاصطياف

إليها كان حَجِّى وأعتمارى ... وفيها كان تَختُّلى وأختِلابى
فكيف أذوقُ للصَّبوات طعماً ... وعن عَرَفاتها طال أحتجابى ؟

* * *

نداءَى للبحرِ ، سوف أعود يوماً ... لأُطفئ ما بقلبى من لؤاب [1]
نشيدى فى التصوف كان لحناً ... نقلتُ صداه عن قصف العباب
سواىَ يرى الوجود إن اجتلاه ... سطوراً ثاوياتٍ فى كتاب
ويجْلوه لوِجْدانى ورُوحى ... إذا ماشئتُ إظلالُ السحاب [2]
وهل كانت حياة الناس إلا ... قلائد صاغها رَبُّ الرَّباب [3]
عشقتُ البحرَ والصحراء عشقاً ... به طال اندفاعى وانجذابى
أُطِلّ على الفضاء فتزْدَهينى ... رِحابٌ غارقاتٌ فى رِحاب
وأنظُر للوجودِ فلا أراهُ ... سوى خمرٍ تماقَر أو رُضاب [4]

* * *

أخِلّائى هنالكَ ، حدّثونى ... حديث (الثغر) وانتظروا إيابى
أفوقَ رُبوعه غامتْ سماءٌ ... مؤَججةٌ بأقباسِ اللُّهاب [5]
وما القومُ الذين عَدَوْا عليه ... كعدوانِ الذباب على الشراب ؟
أكانوا جِنّةً صُمًّا فماثوا ... به عَيْثَ الأراقم بالوِطاب [6]
أكان (النسر) فى التحليق أدْنى
إلى الإسفاف من ذاك (الغراب) ؟
وما الألمانُ إلا قومُ بَغْىٍ ... أثيم الجِدّ مذموم القِطاب [7]
نِطاحٌ كله سفَهٌ ولؤْمٌ ... ولو كَرِه المصانع والمحابى

* * *

(١) اللؤاب : العطش

(٢) أجمل الشاعر فى هذين البيتين معنى فصله فى « ذكريات باريس » فى بحث عنوانه « بين فصول الكتاب وآيات الوجود »

(٣) الرباب هو ما دون السحاب ، فالسحاب ربه ، ورب السحاب هو البحر ، ورب البحر هو الله . وللشاعر عقيدة صوفية تقوم على أساس « الحقيقة البحرية » وهي عقيدة لا يتسع لشرحها المجال ؛ وقد تفتح أبواباً من الجدل لا يطيقها أكثر الناس ، لأنها تخالف ما اصطلح عليه الصوفية

(٤) يريد الشاعر أن يقول إن الوجود كله جميل حتى ليحسبه رشفات من خمر أو رضاب

(٥) اللهاب بالضم هو اللهب أو اللهيب

(٦) الأراقم هى الحيات الرقط ، والوطاب مفردها وطب ، وهى أوعية اللبن ، والحيات تحب اللبن إلى حد الجنون ، والعرب يصفونها بالصمم ليبالغوا فى قدرتها على الايذاء ؛ وهو الوصف الذى أضافه الشاعر إلى أولئك الجن العائثين

(٧) القطاب بكسر القاف هو المزاح

أحقٌّ أن نادى (الثغر) أقوى ... وأقفر من أحاديث الصحاب ؟
فلا « النشارُ » يسأل غير صاحٍ ... ولا « شيبوب » يحلم بالجواب ؟
« أبو شادى » أفاقَ ، فمَن بَشيرى
برَجْعِ الأمنِ للثغر المَهاب [1]
وكيف يَعيشُ رُوحٌ كان أنسىَ
وإنْ أِلفَا اللجاجةَ فى الغِضاب ؟
أكاتِمُ حبّهُ قلبى وأمضى ... فأعلنُ بُغضه عند العتاب
هو الدنيا : وقدُ جنتْ فصاغت ... رحيقَ هواه من شهد وصاب

* * *

بأهل اسكندريةَ بعضُ ما بى ... من الأحزان للثغر المُصاب
سمعتُ حديثَ نكبتهم فأمسى ... فؤادى فى انصداعٍ وانشعاب
ملائك من أديم الخلد صيغوا ... لِيومِ الوَجْدِ أو يوم الغلاب
أعزّ البحرُ أنفسهم فعزوا ... فهم قوم اعتلاء واصطخاب
هُمُ الحراسُ للوطن المُفدّى ... من العادينَ أشباه القُلاب [2]
فكيف تبددوا وأدال منهمْ ... مديل البأس من وكر العُقاب [3]
تُساق إليهمُ الأقوات ، هلاّ ... تساق إليهم عُددُ الحراب ؟
أغيثوهمْ بسَيْفٍ لا يُزاد ... فهم خلف القساورة الصلاب [4]
أمِدوهم ، إذا شئتم ، بجيش ... وَقاح الوجه منزوعِ النقاب
فما حفظ الديارَ سوى حسامٍ ... به ظَمأٌ إلى يوم الضِّراب

* * *

أجب « عبد القوى [5] » وأنت شهم
صريحٌ لا يُداوِرُ فى الجواب
أأنت ترى « المخابئ » واقيات ... وهُنّ أذل من غار الضِّباب ؟
وما شرفُ الفتى وقد استنامتْ ... جوانحُه إلى مثوى الهوابى [6]
لنا ماضٍ نَسيناه فضِعْنا ... ضَياعَ التبر فى جوف التراب
لقد كنّا ، وكنا ، ثم كنا ... أداة الفتك من ظُفر وناب

(١) المهاب بفتح الميم ، هو المكان الذى يكثر فيه التهيب والخوف . وإفاقة الدكتور أبى شادى تستحق التنويه ، فقد سقطت قنبلة على بعد خمسمائة متر من داره ولم يصب بسوء . وتلك أول مرة تظهر فيها كرامة « أبوللون » ! ! (٢) القلاب . بضم القاف ، داء يصيب القلب

(٣) العقاب ، بضم العين ، طائر من الجوارح

(٤) القساورة : الأسود

(٥) هو المهندس الأديب عبد القوى أحمد باشا وزير الوقاية المدنية

(٦) الهوابى : أتربة القبور

ركزنا الرعب في مهج الضواري ... فكيف تروزنا مهج القِتاب ؟
لوادينا القوى عنت وجوه ... عززن بالانتساب والاكتساب
ألم ندفن بوادينا قروماً ... أرادوا الشرب من أمواه (حابي) (١)
فكيف نكولنا عن ردع قوم ... لئام البغي منكودي الإصاب (٢)
هم ظنوا الكنانة زاد يوم ... كظن النمل في نسف الهضاب
فإن فازوا فسوف نكون منهم ... مكان البحر من لهب الضوابي (٣)
وسوف نظل نحن كما فطرنا ... أباة الضيم أحرار الرقاب
عركنا الدهر جيلاً بعد جيل ... وكابدنا الألوف من الصعاب
فما هنّا على الأقدار يوماً ... ولا أمست بوارقنا نوابي (٤)
ألم نشرق على الشرق المعنّى ... فندفع عنه آصار الضباب ؟ (٥)
بنا وثقت شعوب لم تواجه ... بروق الغرب إلا في ارتياب
بنا استهدت بصائر لم تُرضها ... خداعاً بالمواعيد الكذاب
كدأبكم وقد صنتم كم ... على ستر الخيانة بالخلاب (٦)
أكان العلم في عالي سناه ... ذريعة الاسترقاق والاستلاب
أروني منّة أسلفتموها ... بلا نهب يراد ولا اغتصاب
طلائع كان علمكم ليوم ... يهون بجنبه يوم الحساب
ولم يك علمنا إلا نظيراً ... لضوء الشمس يزهد في الثواب
أأنتم تفتنون بما ملكتم ... من العدد المنذرة بالخراب
ولا تزكى بآراء صحاح ... هي المنشود من فصل الخطاب
فإن تخلد مآثرنا وتسلم ... على التاريخ من شبه المعاب
فذاك لأنها آثار قوم ... كرام الروح أطهار الإهاب
لنا الخلد الذي لن ترزقوه ... ولو أوتيتم ملك السحاب
فخبّوا في المطامع كيف شئتم ... وخوضوا القاتمات من العقاب (٧)
وردوا الأرض في شرق وغرب ... بكبر الليث أو زهو الغراب
وصولوا آمنين بنار حرب ... تحيل المزهرات إلى يباب (١)
فسوف ترون بعد مدى قصير ... فرائس للمحاق وللذهاب

***

بأهل اسكندرية بعض ما بي ... من الأحزان للثغر المصاب
أتلك قيامة قامت فدكت ... حصون البأس من تلك الطوابي (٢) ؟
فمن كهل سديد الرأي يمسي ... لوقع الهول مفقود الصواب
ومن رشأ نصيره الرزايا ... وقيذ الشيب في شرخ الشباب (٣)
ومن عذراء يلفظها حماها ... فتخرج للبلاء بلا نقاب
قوارع لم تقع إلا بأرض ... يقارع أهلها وقد الحراب (٤)
فما آثام أهل (الثغر) حتى ... يشن عليهم ويل العذاب ؟
مضت زمر إلى الأرياف منهم ... مضي الأسد من غاب لغاب
فكيف استقبلوا بعد ارتقاء ... جشيب العيش في تلك الشعاب؟
أمن بعد الحشايا ناعمات ... يكون بساطهم متن التراب ؟
إلى جلواتهم في الصيف كانت ... تزف أطايب الحسن اللباب
وفي دارتهم كان التنادي ... إلى الصبوات في الشط الرغاب (٥)
فكيف مضوا حيارى لم يثوبوا ... إلى زاد بعد ولا ثياب ؟
وكيف غدوا بهذا الصيف صرعى ... لمشئوم الشتات والاغتراب ؟
كذاك العيش بؤس بعد لين ... وشهد يستقى من بعد صاب
ومن عشق السلافة في صفاها ... أحب لحبها رنق الصباب (٦)

***

عروس البحر، نسرف إن رأينا ... حياتك في المزاح وفي اللعاب (٧)
وكيف وفي معاهدك الحوالي ... تسابقت العقول إلى الوثاب ؟
بكل محلة وبكل أرض ... مآثر منك طيبة النصاب (٨)

(١) حابي هو اسم النيل عند قدماء المصريين، والحابي هو الوهاب
(٢) الإصاب مصدر أصاب، كالإقام مصدر أقام وفيه إعلال بالحذف
(٣) الضوابي: النيران (٤) البوارق: السيوف
(٥) الآصار: الأثقال
(٦) الخلاب بالكسر، هو الخداع
(٧) العقاب جمع عقبة بالتحريك وهي الطريق الصعب في الجبل

(١) اليباب: الخراب
(٢) الطوابي: القلاع، وهي كلمة تركية الأصل
(٣) الوقيذ: المطعون
(٤) الحراب: المحاربة
(٥) الرغاب، بفتح الراء، الفسيح
(٦) الصباب، بضم الصاد، بقية الكأس، والرنق: الكدر
(٧) اللعاب: الملاعبة (٨) النصاب: الأصل

وما روما وآثينا إذا ما   تبارى الفاخرون بالانتساب ؟
منار العقل كنت بلا امتراء   ونار القلب كنت بلا ارتياب
بكى التاريخ من عهد لعهد
مصاب العلم فى (دار الكتاب)(١)
فهل كانت بدائمها لقوم   أجانب عن مرابعك الرحابِ ؟
بَنَاكِ أُسكندَرٌ فيما بَنَاهُ   كذلك قِيلَ رَجماً بالمغابِ(٢)
ولو أصغى أولو الألباب يوماً   لِهَمسِ الوحى فى تلك الرَّوابى
لَأَمنَ فِتيةٌ منهم برأىٍ   يَخالُكِ صادقاً « بِكرَ العُبابِ »
وهل « ڤِينوسُ » عندَ مُربّيها
سوى « راقودَ » فى أحلام « حابى » ؟(٣)
لِـ « كِيمى » أنتِ، يادارَ التنادى   إلى الهيجاءِ أودارَ التصابى(٤)
لِـ « كِيمى » أنت من أيام نوح   توارثك أَبنمٌ عن خير آب(٥)

***

مَضى عهدُ القياصر فى انزعاج   بأرضِ اسكندريةَ وانقلاب
بلادٌ لم تكن إلّا مُجالاً   لِشُبُوب الصِّيال والاحتراب
بجمْرِ الثورة الحمراء يُغذَى   بَنوها لا بزاد أو شرابِ
وجاء الفتحُ فانقادوا لقومٍ   مساكنهم بصهوات العراب(٦)
هوَ الإسلامُ طَهَّرهم فأضحوا
كماء المزْنِ فى شُعَبِ اللِّصابِ(٧)

(١) دار الكتاب هى مكتبة الاسكندرية المشهورة فى التاريخ
(٢) المغاب هو الغيب ، ومعناه الظن والتخمين
(٣) يريد الشاعر أن يقول : إن الأسكندرية كانت موجودة قبل الأسكندر بأزمان طوال ، وإنما سمى أحد أحيائها باسمه ، فغلبت التسمية على مر الزمان ، واسمها القديم راقود . وهنا التفت الشاعر لفتة خيالية ، فجعل « راقود » نظيرة « فينوس » و « فينوس » هى ربة الجمال عند القدماء وقد ولدت على شاطئ البحر ، وكذلك ولدت « راقود » ، وذلك معنى قوله : إنها « بكر العباب » . ومن المؤكد أن « راقود » هي أقدم المدائن البحرية ، لأن طبيعة ذلك المكان من شواطئ مصر توجب أن يكون أهلا للحضارة والعمران
(٤) « كيمى » هو اسم مصر عند أهلها القدماء ، وكيمى معناه السواد ، وسميت « كيمى » لغلبة هذا اللون على أرضها ، ومن كيمى جاءت لفظة « الكيمياء » لشهرة المصريين بالتفوق في الاختبارات الكيميائية
٥) « الآب » ، بالمد ، هو : « الأب » ؛ وهذا المد جاء لعلة صرفية هي تعويض الحرف المحذوف وهو الواو ، وهو يعوض فى لغة التخاطب بتضعيف الباء ؛ فقول النصارى « باسم الآب » صحيح من الوجهة اللغوية
(٦) « العراب » : الخيل العربية ، ومساكن العرب فى أيام بأسهم كانت بصهوات الخيل
(٧) « اللصاب » جمع لصب ، بكسر اللام ، وهو الشعب الضيق فى الجبل ، وهو يحفظ الماء من الأقذاء

فهل يَدرى المؤرخُ كيف صاروا
طلائعَ للجهادِ وللغلابِ ؟
عليهمْ عولَ الإسلامُ فيما   أرادَ من المغاربة الصِّلاب
فأمّوا الغربَ يحرسهم تقاهم   وقد مشت الملائك فى الركاب
وحلوا عادلين به كراماً   حلول الغيث بالبقع الجداب
فلما أنْ هوت شمس المعالى   بأندلسٍ ولاذتْ بالحجاب
تقاطر أهلها يبغون حصناً   يقيهم شر أيام التباب
إلى جفن الحمى بالثغر عادوا   كما عاد الجراز إلى القراب(١)

***

أتاريخاً يحبِّره قصيدى   لماضى « الثغر » فى عهد الشباب ؟
وما الشمس المضيئة إن حكتها   لرائيها خيوط من لعاب ؟(٢)

***

عليك اسكندرية أجّ حزنى   فطار تجلدى وهوى صوابى(٣)
إذا فكرت فيك غلت دمائى   وآذن جمر حقدى بالتهاب
ألا سيف أجرده وأمضى   لأدفع عنك عادية الذئاب ؟
ألا جيش قوى البطش ضار   يذيق عداك أكواب العذاب ؟
سأصمت كارهاً ، والصمت حيناً   يعدّ من البراعة فى الجواب

زكى مبارك

(١) الجراز ، بالضم ، هو السيف القاطع ، والشاعر يشير إلى حقيقة تاريخية ، وهى أن فريقاً من الجيش الذى فتح أفريقية ثم دخل الأندلس كان من الأسكندرية ، فلما غاب نجم الاندلس لاذ كثير من أهلها بالأسكندرية ، فكثير من العائلات بالثغر يرجعون إلى أصول أندلسية ومغربية ، وذلك سر الفراسة الغالبة على طباع الأسكندريين
(٢) لعاب الشمس شعاع ينحدر من السماء عند الظهيرة ، والتاريخ لا يصور الحقائق إلا بمقدار ما يصور اللعاب حقيقة الشمس
(٣) أج الحزن : استعر واضطرم

من الأدب الحضرمي

ابن شهاب العلوي

للأستاذ علي عبود العلوي

[السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوى شخصية بارزة في سماء الأدب الحضرمى تألق نجمها من أواخر القرن الثالث عشر الهجرى إلى أوائل العقد الخامس من الرابع عشر

وقد ترعرع الحركة الأدبية بحضرموت وهو لم يتجاوز العقد الثانى من العمر ونهض بحضرموت فى عالم الأدب بعد أن كان حظها من النهوض فيه قليلا

ولئن تغلبت عليه الناحية العلمية فاستأثرت منه بالتفكير وقطعت من حياته جزءاً عظيما فى التأليف ، وأرغمته أن يترك لنا ذخيرة فى العلم وثروة كبيرة جليلة المقدار تقارب الثلاثين مؤلفاً ، فأشهد أنه فوق هذا كان الأديب بالطبع ، والأدب سلوته الوحيدة وثروته التى لا تنفذ ، ورأس ماله العظيم

ولو وجد فى بيئة شاعرة لكان منه أديب كبير تفاخر به العالم

قرأت ديوانه منذ ثلاث سنوات وعلقت عليه مذكرات يصح أن يستقل بها كتاب خاص وهذه الكلمة من إحدى فصوله

زار ابن شهاب مصر والعالم العربى والاسلامى عام ١٣٠٣ هـ وألهمه جو مصر بست عشرة قصيدة

ولد الشهاب العلوى بحضرموت سنة ١٢٦٢ هـ وتوفى بحيدر أباد دكهن بالهند فى ٢٩ / ١٢ / ١٩٢٢ الموافق ١٠ / ٥ / ١٣٤١ هـ]

البيئة المحافظة وحياة الشاعر :

قضى الأمر ولات مفر أن ينشأ شاعرنا فى البيئة المحافظة وهو الشاعر . والشاعرية ثورة نفسية تطمح لتحطيم القيود ، وتجنح إلى إرضاء النفس واتساع العاطفة ، وتميل إلى التغنى بمحاسن الجمال ، وتخفق أجنحتها حينما ترى الوسامة والصباحة فى القد السمهرى تخطر فى كوكبنا الأرضى ، كالنجوم تتلألأ فى السماء !

ولكن يحول دون ورود مناهل هذه الرياض ذات الأريج المنعش ما سنته أحلام الفلاسفة وفرضته الأديان وأقره العرف واصطلحت عليه الإنسانية منذ عصورها الأولى فورثته لنا أجيالها القديمة حتى صار من الأسس المقررة التى لا يمكن الخروج عليها دون أن تثور ثائرة الرأى العام وتقوم بصخبها العظيم تجاه النفوس الحساسة الرقيقة

ولئن كانت فى هـذه الثورة نوازع إنسانية كثيرة جديرة بالإكبار والإعجاب ، فإن فيها من الشطط والإجحاف بحقوق العالم الروحى شيئاً كثيراً ، لا سيما وأن المجتمع الحضرمى كغيره من مجتمعات بنى الدنيا ، قد أضافوا إلى القيود التى يرتضيها العقل والدين والعلم قيوداً أخرى لا تمت إلى الإصلاح بشئ

اللهم إلا إن كان جانب الإصلاح فيها ضئيلاً . وعلى كل فلن يقاس بالجانب العظيم الذى فقدناه من جراء كتم العواطف عند ذوى الإحساس المرهف ، القادرين على التعبير عما تجيش به نفوسهم .

وإذا كانت هذه الأوبئة الطفيلية تتهادى بها الأمم ، وتنتقل منهـا ولو إلى قطر بعيد كحضرموت قل من يقصده بالزيارة من بين الأقطار العربية والإسلامية بله الأقطار الأجنبية .

فإن حضرموت فوق ما سرى إليها من العدوى بيئة عربية إسلامية صوفية ، بلغت المثل الأعلى فى تطبيق القول بالعمل ، حتى كأنها المعنية بقول الشاعر :

كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمُ من جميع الناس إنسانا

فى هذه البيئة نشأ شاعرنا الشهاب العلوى ، وجاشت نفسه بالشعر وهو فى سن المراهقة ، فتغنى وأغنى الشعب الحضرمى بالشعر الغنائى الوجدانى ، وذاعت شهرته فى النوادى الحضرية ، وفى المجتمع الحضرمى على اختلاف طبقاته ، لأنه كان يقول الشعر وهو فى هذه السن المبكرة بلغة حضرموت الدارجة ، وبأوزانها الشعرية ممـا يدعونه بالشعر الحمينى ، أى غير الشعر المعرب ذى الأوزان العروضية الخليلية

والشعر الحمينى قد يكون مرسل القافية كما يكون رباعياً ،

وأحياناً ثنائياً بلا نغم مردد ، وإما ثانياً بالنغم المردد[1]

فاضت نفس شاعرنا بالشعر الحيني وملأت به الجو الحضرمي

ولكنها بعد ذلك سمت إلى أن تسامى في النصيب العربي الخالد ، وأن ترد المنهل الكبير منه ، وأن تشاطر في المثل السامي الذي اتخذته العروبة لها نبراساً تستضيء به معالمها الشعرية

وليس من الصعب على نفس شاعرة بطبيعتها ألا تهتدي إلى ينابيعه العذبة ، ولكن من الصعب علينا نحن أن نتبين تاريخ الدور الذي جنحت إليه نفس شاعرنا بالضبط ، لأن ديوانه قد خلا من إثبات أشعاره وهو في دور العقد الثاني وأوائل العقد الثالث ؛ وكل ما نعرفه عن مقدرته الشعرية في هذا الدور تلك الأرجوزة التي نظمها في علم الفرائض ، وضمنها كل ما يحتويه الفن إجابة لاقتراح أحد مشائخه عليه[1] ، والتي يقول في مطلعها :

لله حمدي وارث الأرض المتين ... ومن عليها وهو خير الوارثين

وفي ختامها يقول :

فاصفح وأصلح مابها من الغلط ... فقد أتى: مَن ذا الذي ماساء قط

وعذر من لم يبلغ المشرينا ... يقبل عند النـاس أجمعينا

أو قصيدته التي امتدح بها شريف مكة الشريف عبد الله باشا ابن عون الحسيني وعمره إذ ذاك ٢٤ سنة ، قال :

حي الحيا حياً به حلت سُعا ... ومنازلاً خطرت بهن وأربعا

وهمت على الوادي الذي سكنت به ... ديم تغادره أنيقاً ممـــرعا

---

(١) الأنغام الحضرمية ليست لها دائرة علمية تنظمها وإنما ترد إلينا تباعاً من أماكن عديدة بحضرموت كوادي حجر بن دغار — ولوادي حجر ابن دغار في تاريخ حضرموت القديمة مكانة معروفة في التاريخ ليس هنا موضع ذكرها — وترد إلينا من منحدر وادي حضرموت الشرقي ويسمونه الغناء الحدري ومن غير هذه الأماكن

وجل الغناء الشعبي بدوي اللهجة ولكنه يكهرب الحضرمي ويبعث فيه السرور والنشوة ويوقظ فيه الحمية والأريحية والنجدة

لم أهتم بدراسة الموسيقى — الأنغام — الحضرمية عند ما كنت بحضرموت ، ولو قصدت لما استطعت لأني أجهل علم الموسيقى ، وإنما الذي يعنيني أن أقوله : هو أن أساتذة الأنغام كما سمعت عنهم : كثيراً ما يهيمون في الجبال والأودية يترقبون الوحي وهم في العزلة حتى يفتح الله عليهم أو تلهمهم آلهة الشعر ما تصبو إليه نفوسهم فيعودون إلى أهلهم وأقاربهم وهم ثملون بما اكتنفوه من آيات الفن الغنائي وقد توجوه بما تجيش به نفوسهم الشاعرة من الشعر ليتغنوا به وليذيعوه ما بين الشعب الحضرمي

وما هي إلا أيام قلائل حتى ينتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية ومن واد إلى آخر حتى تتغنى به حضرموت كلها ، ولا يقتصر التغني به على عامة الشعب بل تزدان به مجالس الطبقة المتنورة ويتهافت سراة القوم وأرباب الأدب على القول فيه ، والفرق بين القول والقول هو ما تنتجه القرائح المثقفة والتي لم يكن لها نصيب من التثقيف

شهدت حفلة زواج لأحد سراة العلويين وأدبائهم سنة ١٣٤٠ هـ — هو السيد العلامة الأديب المرحوم الحسن بن عبد الله السكاف العلوي المتوفى بتريم سنة ١٣٤٦ هـ وعائلة آل السكاف إحدى العائلات العلوية المشهورة بالثروة والغنى وحب الاصلاح — وفي الليلة الثالثة من حفلة الزواج كانت حفلة سمر حضرتها كما شهدها بعض أقرباء العروسين وغيرهم ، وكان يقيم عند السيد السكاف مغن رخيم الصوت حسن الغناء ، وبعد أن قدمت أنواع المرطبات بمختلف أجناسها استدعى السيد المذكور المغني واقترح عليه الغناء بأحد الأنغام الحضرمية وأخذ يملي عليه الأبيات تلو الأبيات وما انقطع عن قول الشعر إلا بعد أن استأذن للانصراف . ومما أريد أن أقوله للدلالة على الفوارق الأدبية والتي لم يكن لها حظ منه ، أو كان لها حظ منه ولكنه قليل ، أن أحد أقرباء العروسين غاب من المجلس هو وابن خاله . وفي أثناء غيبتهما قدمت أصناف المأكولات ، وبعد عودتهما علم قريب العروسين بما لم يرزقه الحظ أن يناله فقال مخاطباً السيد السكاف :

يَا عمِّى حَسَنْ قُمْ هَاتْ قِسْمِى مِنْ عِنْدِ الحبائِب قِدْهْ مَشْمِىْ لِي مَطْرُوحْ طَالِعْ وَسْطِ لِصْحَانْ صُبِّىْ يَا مَطَرْ وَالرَّعِدْ حُنَّانْ بَخميس

فأجابه السرى السقاف : رُوْعَكْ قَدْ بَدَرْ وَالوَشِرْ ، مِرْمِىْ حَظَّكْ قَدْ قَصَرْ ، سَايَرْتْ مَعْمِي بِنْ خَالَكْ عُمَرْ ، له قلب حيران ... صبى يا مطر

ألفاظ الأبيات : الأصحان بمعنى الأطباق . روعك نصيبك . الوشر نشارة الخشب والكلمة مشتقة من وشر ولم يراعوا القاعدة في التصريف

(١) نظم السيد ابن شهاب الأرجوزة وعمره ١٨ سنة وشرحها فيما بعد بكتاب سماه : الفتوحات . وقد أكبر المنظومة والشرح علماء حضرموت واليمن وانتدب أحد أشراف اليمن وعلمائها فوضع عليها حاشية

ويقال : إن السيد ضمنها علم الفرائض ولم يغادر منه شاردة أو واردة إلا أشار إليها . ومن العجب أن يتهيأ له نظمها في ليلة واحدة . وكما أذكر أن أبياتها نحو ٣٠٠ بيت

ونص صديقنا الأديب الشاعر صالح الحامد العلوي في مقال له نشر عن ابن شهاب على أن المقترح لنظم الأرجوزة هو الامام العلامة كبير علماء حضرموت وعين أعيان مشايخ الصوفية السيد علي بن محمد ابن حسين الحبشي العلوي المتوفى بسيون يوم الاثنين ٢٠ / ٤ / ١٣٣٣ : وأنا أروي قوله بتحفظ : لما بين ميلاد السيد ابن الجليلين من تقارب في المدة فقد وجد ابن شهاب عام ١٢٦٢ هـ والامام الحبشي في ٢٤ شوال سنة ١٢٥٩ هـ . وإن لم تخن الذاكرة فان المقترح لنظم الأرجوزة هو شيخه المؤرخ النسابة مفتي حضرموت السيد عبد الرحمن بن محمد المشهور العلوي الموجود بتريم ١٢٥٠ هـ والمتوفى بها ليلة السبت ١٦ / ٢ / ١٣٢٠ هـ

وسقى العهاد معاهداً بسفوحها ... تختال جارات الصفا والمدعى
ديم أوانس صيدهن محرم ... ليظللن في تلك المحاجر رتّما
سود الذوائب والجلابب والعيـــون القاتلات متيما ومولها
من كل غانية بلطف حديثها ... ودلالها تذر الفؤاد مقطما
يا ظبيــة البطحاء مهلاً إنني ... بهواك ذو كلف سقيما موجما
هل تسمحين فدا لحسنك مهجتي ... بالوصل ذا شنف يفيض الأدمعا
واقضي لبانتـــه لديك وزحزحي ... عن وجهك الحسن الصبيح البرقعا
حاشا لحسنك أن يكون محرماً ... ولمثل وصلك أن يكون ممنعا
تيهي فإنك في الحسان مليكة ... يأتين نحو حماك شمئا خضعا
وتمايلي بحلى محاسنك التي ... لم تترك لسواك فيها مطمعا
وتبختري جذلاً فقد جاوزت من ... جمع المفاخر والمكارم أجمعا
قمر البطاح خليفة الحرمين مو ... لانا أبا شرف الشريف الأروعا

إلى آخر ما قال

ومن الظلم ألا أشير إشارة إجمالية إلى أن ابن شهاب في هذا العهد لا يزال يتوثب للصعود، ولكنه مكبل بقيود الصنعة الزائفة :

حي الحيا حياً به حلت سما ... ومنازلاً خطرت بهن وأربعا

أو سود الذوائب ... الذي مصدره التقليد المحض أو الإعجاب بما قال أبو الطيب :

من الجآذر في زى الأعاريب ... حمر الحلى والمطايا والجلابيب

والفتى الناهض لا بد أن يتحرر يوماً ما وأن يصبح حراً طليقاً ليتغنى بالشعر كما توحي به العاطفة ، لا كما تريده الصناعة الزائفة . وفي الفصل الذي يتضمن الكلام على الأدوار التي اجتازت بها شاعرية شيخ حضرموت سترى ذلك

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ذكر عن أهل الجيل الماضي بأنهم كانوا لا يرون الشعر إلا مغالبة لسانية ، ومساجلة كلامية ، ولباقة منطق ، وسرعة جواب وارتجال(1)

(1) ٨٩ من شعراء مصر

وكذلك قدر لابن شهاب أن يدخل في شراك هذه الأحبولة الضيقة ، فإن الشريف عبد الله ارتاب في أن تكون القصيدة لشاعر حضرموت ، وظن أنها مقولة على لسانه ؛ لا سيما وقد شايعه على هذا الرأي أحد ندمائه ، إذ أسر إليه في المجلس بذلك فاقترح الشريف على شاعرنا أن يجيز البيت الآتي ليختبر بذلك قريحته :

صـفى الوقت لا أبناء الزنا ... ولمن يحسن ضرباً وغنى

ولا مناص لابن شهاب من أن يقيم الدليل على شاعريته فيقول(1) :

وبنو الدهر كما قد مال ما ... لوا إلى من كان منهم ذا غنى
قل أن يوجد منهم منصف ... أنا قد جبت القرى والمدنا
وبلوت النـاس طراً فإذا ... أكثر الناس أرقاء الدنا
جانبوا الصدق الذي من قاله ... بان إبريزاً إذا ما امتحنا
عزفت أنفسهم عن كل من ... كان من أهل الثاني والثنا
وغدوا لم يرفعوا رأساً بمن ... لهم الآداب كانت ديدنا

ذلك ذوق عصر نربأ بأنفسنا اليوم أن نقفو إثره أو نتبع خطواته . وما أدري مقدار صحة الرواية التي نصت على الحكاية المذكورة ، وإن كنت أعرف أنها دليل على انحطاط الذوق الأدبي والاجتماعي

يا ترى ماذا أريد أن أقول ؟ !

أظنني أريد أن أقول : إن للسيد ابن شهاب كثيراً من الشعر الوجداني الذي ماجت به عاطفة الشباب ودفعته به خصوبة النفس اليقظة الشاعرة التي يستهويها الجمال ، والتغني بمشاعر القلب والوجدان ، ولكن ظروف البيئة المثقفة بالروح الصوفية هي التي حرمتنا الاستفادة من شعر الغناء والوجدان .

ومن ناحية أخرى فإن العزلة التي استهوت حضرموت والتي لا تزال تستهويها إلى اليوم وصيرتها بمعزل بعيد عن الأخذ بوسائل النهوض وتنمية المعارف والثقافة ، هي التي هيأت الفرصة

(1) ٢٤٧ من ديوانه

لأن يتنكص ابن شهاب في آخر عمره عن نشر آثاره التي تحمل سورة الصبا ومطارح الفتون والفتوة .

ولو كانت لنا إذ ذاك مجلة أدبية أو صحيفة سياسية أو اجتماعية لما أمكن شاعرنا أن يتنازل عن بنات أفكاره ؛ ولأنه لو فعل لاستطعنا الوصول إلى أشعاره بلا أقل كلفة ولا عناء .

ولا تزال ترن في أذنى سورة القصيدة التي أنشدنى إياها حفيد الشاعر الأديب السيد حسن بن عمر الشاطرى العلوى وذلك منذ سنوات وأنا بجاوة .

نعم لا أزال أذكرها لاستحسانى إياها إذ ذاك وهي من الأشعار التي لم تثبت في ديوانه (١)

وإذا كنت على ذكرى لإعجابي بالقصيدة فإنى لا أعرف الأسباب التي حالت بيني وطلب نسخة منها من صديقى الأديب لاحتفظ بهـا مع المذكرات التي جمعتها في تاريخ حضرموت .

لا أريد أن أحجم عن أن أبين الغرض المقصود من ذلك أن السيد ابن شهاب كما ذكرت في جملة التعريف به أكبر شخصية تزعمت النهضة الأدبية في عصره الحضرى . ومن كانت له هذه المكانة السامية جدير بأن تعطينا المعلومات الكافية عنه من كل الجهات ، وأن نتعرف إليه وهو في سن الصبا كما نتعرف إليه وهو يافع وفتى وكهل لأن التعرف به هو التعرف إلى الأدب الحضرى في الصميم

ودراسة الأدب الحضرى هي دراسة البيئة الحضرمية بما لها من مكانة علمية وأدبية وما فيها من عادات وأخلاق وميول ومشارب واصطلاحات وروح فكرية وصوفية

وهـذه كلها قيم تاريخية جديرة باعتبارها في المكان الأول في تاريخ حضرموت الأدبي ، والبيئة المحافظة تقيس الآداب والفنون بمعيار علم الأخلاق .

علي عبود العلوى

(١) في افتتاحية الديوان ما نصه :

« هذا ما أذن بنشره العلامة المصقع البليغ المتفنن السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوى الحسينى من شعره بعد عرضه عليه وتنقيحه لأكثره دون ما لم يأذن فيه أو استولت عليه أيدي الضياع من قبل فان له شعراً كثيراً ذهب مع الأيام » صحيفة ١٢٧

من تراثنا الأدبي

ما ألف عن النساء

للأستاذ صلاح الدين المنجد

سمرنا ليلة عند صاحب لنا أديب، فنقضنا الأحاديث نقضاً، ثم ملنا إلى ذكر النساء وأخبارهن، والعرب وآرائها فيهن؛ وكان في المجلس متأدب فجّ العلم، أخذ اللغة عن الأعاجم وتخرّج على طرائقهم ونهج مناهجهم، ونحا في تفكيره منحى لا استقامة فيه. فذهب إلى استخفاف العرب بالنساء، وادعى أنهم لم يحفلوهن ولم يخصوهن بالتآليف، أو يفردوا لهن التصانيف؛ ودعم زعمه هذا بأقوال باردة لبعض المستشرقين

وقد أردت تتبّع هذا الزعم بالرد ... لتبيان طرافة جهل هذه الفئة، وضيق علمها، وأفَن رأيها، وسخف دعواها؛ واستقرأت تراث الإسلام والعرب الزاهر، فإذا فيه تآليف حسان وتصانيف مِلاح خصّوها بالنساء، وجلّوا فيها عن أسرار خفيّات وأخبار مكنونات، ولم يدعوا أمراً أدر كوا صلته بهن إلا تكلموا عليه وبحثوا فيه

وليت أن هذا التراث العربي كان قد سلم ... إذن لرأينا من أخبار النساء كل معجب مطرب ... ولوجدنا فيه سيرهن وأحاديثهن وأسرارهن منذ الجاهلية حتى عصور الانحطاط:

١ — فقد ألف عنهن في الجاهلية كتب كثيرة، منها: كتاب «الموءودات» لهشام بن محمد ... بن الكلبي النسابة الأخباري(١)، وكتاب «المعروفات من نساء قريش» له أيضاً، وكتاب «المردفات من قريش» ألفه علي بن محمد المدائني المحدث المتكلم(٢)، وكتاب «بغايا قريش في الجاهلية» ألفه الهيثم بن عدي الراوية الأديب الأخباري(٣) ... وغيرها

(١) مات سنة ٢٠٦ أنظر أخباره في فهرست ابن النديم. ومعجم الأدباء ج ١٩ (دار المأمون)

(٢) ولد سنة ١٣٥ مات سنة ٢٢٥. أنظر الفهرست ومعجم الأدباء ج ١٤

(٣) مات حوالى سنة ٢٠٨هـ. أنظر وفيات الأعيان ج ٢. ومعجم الأدباء ج ٤

٢ — ثم خصوا نساء النبي وأمهاته بالرضاع وبناته بعدد من الكتب لا يُحصى، منها: كتاب «أمهات النبي» للمدائني الذي مر ذكره، وكتاب «أزواج النبي» لمحمد بن عمر المعروف بابن القوطية، وكان نحوياً لغوياً أديباً شاعراً(١)، وكتاب «أزواج النبي» لابن الكلبي ... وآخر مثله للواقدي محمد بن عمرو المؤرخ الإخباري(٢)، ثم كتاب «بنات النبي وأزواجه»، لأحمد الرقي الراوية الحفظة الثقة ذي التآليف الكثيرة(٣)

٣ — وتكلموا على نساء المسلمين ممن أوتى الشهرة والمُلك في كتب شتى. منها كتاب «أمهات السبعة من قريش» لمحمد بن حبيب، وكان من علماء بغداد ومهرة مؤدبيها(٤) وكتاب «أمهات الخلفاء» لابن الكلبي. وكتاب «من تزوج من نساء الخلفاء» المدائني ... وغيرها

٤ — ثم ألفوا في أخبار النساء كتباً كثيرة، تعرّضوا فيها إلى أحوالهن ومعايشهن وطبائعهن وما يعجبن به أو يصدفن عنه وما قيل فيهن وروى عنهن. فقد ألف الجاحظ كتاباً أفرده على النساء وما يتصل بهن، وألف الهيثم بن عدي «كتاب النساء»، وصنّف هارون بن علي المنجم الأديب الشاعر الراوية النديم(٥) كتابه في «أخبار النساء»، وألف المدائني كتاباً في «أخبار النساء» أيضاً. وكان للرقي كتاب في النساء، ولإبراهيم ابن القاسم الكاتب القيرواني الشاعر الرقيق(٦) كتاب «النساء» قال عنه ياقوت «إنه كبير». ولابن قتيبة العالم المؤرخ الأديب كتاب (النساء)(٧)، وعمر بن خلف بن المرزبان كتاب (النساء والغزل)(٨)

٥ — ثم ألفوا في الموضوعات الدقيقة الخاصة بهن، فأبانوا عن أحوالهن الدينية في كتب مختلفة منها كتاب (الحيض)

(١) مات سنة ٣٦٧. أنظر معجم الأدباء ج ١٨

(٢) أنظر وفيات الأعيان ج ٢

(٣) أنظر أخباره في الصفدي ٢. ق٣ — معجم الأدباء ج ٤

(٤) مات سنة ٢٤٥. أنظر معجم الأدباء ج ١٨

(٥) توفى سنة ٢٨٨. أنظر بغية الوعاة للسيوطي ومعجم الأدباء ج١٨

(٦) مات سنة ٤٠٠. أنظر ياقوت الجزء الأول

(٧) الفهرست ص ٧٧

(٨) المصدر السابق ص ١٥٠

للقاسم بن سلام (أمام أهل عصره فى كل فن من العلم)(١) كما ذكر ياقوت. وكتاب (العدّة) و (الرضاع) و (الطلاق) و (الشغار)(٢) لمحمد بن إدريس الشافعى(٣)

٦ — وقد أفردوا التزيّن والتجمّل والتحلّى كتباً كثيرة، ذلك لأنها أمور ذات شأن عند النساء؛ فألّف أحمد بن سعد أبو الحسين، الكاتب الشاعر(٤) كتاب (الثياب والحلى)، وصنف أحمد بن فارس اللغوى(٥) كتاباً مثله. وجمع الرقى أصول (الزينة) و (التزيّن) فى كتابين. وألّف إسحاق بن إبرهيم الموصلى وغيره كتباً فى (الرقص والزفن). ولم يقنعوا بذلك بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فألف على بن محمد الظاهرى الميكالى الأديب الفاكه(٦) كتاب (فخر المشط على المرآة)

٧ — ورأوا أن الظرف أحلى خصائص المرأة، فألّف محمد بن أحمد أبو الطيب النحوى(٧) وكان من أهل الأدب، كتاب (المتظرفات). وألّف أحمد بن أبى طاهر أحد البلغاء الشعراء الرواة كتاباً مثله؛ وصنّف الرقىّ كتاب: (المحبوبات والمكروهات). وكان للمفجّع الشاعر الشيعى(٨) كتاب: (عرائس المجالس). وكان هذا شاعراً حلواً. قال عنه الثعالبى: (شعره قليل ولكنه كثير الحلاوة). ثم ألّفوا فيما يجب أن تكون عليه النساء، وشروط عشرتهن من الرفق والرحمة والقسوة والغلظة، ومن ذلك كتاب الشافعى فى (عشرة النساء)

٨ — ولم يغفلوا عن حياة النساء الخاصة فى دورهن وصلتهن بأزواجهن، فألف الشافعى كتاب (أخلاق الزوجين)، والمدائنى كتاب (من هجاها زوجها)، و (من شكت زوجها)، و (من مُيّل عنها زوجها)، و (من قتل عنها زوجها)، و (من نهيت عن تزويج رجل فتزوجته). وألف خالد بن طليق الراوية النسابة كتاب (المتزوجات)(١)

٩ — ثم تطرقوا فألفوا فى علاقة الرجل الجنسية بزوجه... وهذه التآليف وافرة ولا جدوى فى التنويه بها

١٠ — ثم ذهبوا إلى أبعد من هذا فخصوا الشذوذ الجنسى عند المرأة بكتب وتآليف منها: كتاب (السحق)، وكتاب (البغاء)، وكتاب (برحان وحباحب)، وهو فى أخبار النساء والباه... ألفها محمد بن حسان النبلى أحد الكتاب الأدباء فى عهد المعتصم(٢). ومنها كتاب (السحاقات والبغائين) لمحمد بن إسحق الصميرى أبو العنبس(٣) وكان أديباً مليحاً وهجاء لاذعاً

ولقد خصّ ابن النديم مسرداً لأسماء الكتب التى ألّفت فى «الحبائب المتظرفات» ككتاب «ريحانة وقرنفل»، وكتاب «رقية وخديجة»، وكتاب «سكينة والرباب»، وكتاب «سلمى وسعاد»... وغيرها(٤)

١١ — وكما ألفوا فى أخبار السواقط وذوات الشذوذ، فقد ألفوا فى الشواعر والنابهات والمواقل؛ فهناك كتاب «أشعار النساء» لمحمد بن عمران المرزبانى(٥) الراوية الإخبارى، وكتاب «المواقل» لابن الكلبى... وغير ذلك

١٢ — ولقد عنوا أيضاً بأخبار القينات والجوارى والمغنيات والمسيمات والنوائح وأمهات الأولاد، فكتب الجاحظ كتاباً عن (القيان)، وألف اسحاق بن ابراهيم الموصلى كتاباً مثله. وكان للمدائنى كتاب فى (القينات)، وآخر فى (المغنيات)

(١) مات سنة ٢٢٤. أنظر ياقوت ج ١٦، التذكرة ج ٢، الوفيات ج ١

(٢) جاء فى الصحاح: «الشغار بالكسر نكاح كان فى الجاهلية، وهو أن يقول الرجل لآخر: زوجنى ابنتك أو أختك على أن أزوجك ابنتى أو أختى... وفى الحديث (لا شغار فى الاسلام)...»

(٣) ولد سنة ١٥٠ مات سنة ٢٠٤

(٤) أنظر أخباره فى ياقوت ج ٣

(٥) مات سنة ٣٦٩هـ. أنظر معجم الأدباء ج ٤، نزهة الألباء

(٦) أنظر ياقوت ج ١٤، وبغية الوعاة للسيوطى

(٧) مات سنة ٣٢٥. ياقوت ج ١٧. نزهة الألباء

(٨) مات سنة ٣٢٧. ياقوت ج ١٧

(١) فهرست ابن النديم ص ٩٥

(٢) الفهرست — معجم الأدباء ج ١٨

(٣) مات سنة ٢٧٥. الفهرست — ياقوت ج١٨

(٤) الفهرست ص ٣٠٧ (طبعة أوربا)

(٥) ولد سنة ٢٩٧ مات سنة ٣٨٤. أنظر ياقوت ج ١٨

زخرفة المساجد

للأستاذ الشيخ سيد رجب

كان الدكتور زكي مبارك قد كتب في بعض أعداد (الرسالة) الغربية كلمة من « شجون حديثه » يدعو بها إلى زخرفة المساجد وتنميقها ، ذاهباً إلى أن هذا مما يرفه عن النفس بعد مشاغل العمل ، ويهدئ الخاطر ، ويلهم الروح ، ويرغب في المساجد ، ويعين على العبادة ! وذاهلاً – وهو مؤلف (التصوف الإسلامي) وإن كنا لم نره – عن أن العبادة الحق إنما تنبعث من نبع الإيمان في القلب ، ومن مثابة الهداية في النفس ، وتستلهم الروح لا المادة ، وتتجه بحقيقتها المعنوية إلى السماء لا إلى الأرض . وهذه حقائق لا ينفع لإيجادها ، ولا يغني في التسبب لها ، أن نملأ الأرض – لا المساجد وحدها – بما يقترحه الدكتور من دُمى وتماثيل وتهاويل وتصاوير ! بل إن كل أولئك لن يكون – إن وجد – إلا مشغلة للحس والوجدان والعقل ، وصارفاً للنفس ، في موقفها الرهيب المعظم عما يجب أن تفرغ له من استغراق وتأمل ومناجاة . وهذا بعض ما من أجله صرحت النصوص الدينية بالنهي عن زخرفة المساجد وتنميقها .

ذهل الدكتور عن كل هذا ، وأخذ – وهو الرجل الأزهري رغم صبغته الجديدة – بما لا ينبغي أن يؤخذ مثله به ، ولا أن يغلط في حقيقته ! فلما قام فقيه في المسألة برجْعه إلى الصواب ، وإرشاده للحق ، استنكف ذلك وكبر عليه ، وأخذته العزة بنفسه ، فلم يرض لها أن تُخطئ ، ولم يرض لها – إن هي أخطأت – أن يردها عن الخطأ ناصح من المسلمين ! والكلمة التي كتبت في الرد عليه بغير توقيع ، وفي مجلة لا شأن للوعظ والوعاظ بها ؛ ولكن هذا لم يكن من مصلحة الدكتور أن يفكر فيه ، وليس من شأنه أن يعرفه ، فإنه عسيٌّ أن يقصد عليه ما قصد ، وهو لا يقصد إلا الأزهر والأزهريين

وعلى هذه النية وهذا الأساس هاجم الدكتور الأزهر في أشخاص الوعاظ ، وأقحم ذكرى الرجل الفاضل والمؤمن البار المرحوم الشيخ عبد ربه مفتاح في حديثه ، وعرض نفسه وعلمه وثقافته وفكره الحر الطليق على شباب الأزهر عامة ، وكلية اللغة العربية خاصة ، وسمى الدكتور ذلك كله « زخرفة المساجد »

بيد أن الدكتور قد عرض في كلمته الأولى ، في « الرسالة » الصادرة بتاريخ (٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠) لما تعود هو وأمثاله أن يلوذوا بحصنه كلما حزبهم الأمر في ميدان من ميادين الخلق والعلم والدين ، وهو المناداة بحرية الفكر ، واصطناع

وثالث في (أخبار عزة الميلاء) ، ورابع في (قيان الحجاز) ، وخامس في (قيان مكة)[1] . وكان لأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني كتاب في (الإماء الشواعر) ، وللمفجّع الشاعر الشيعي كتاب في (أشعار الجواري) ولأحمد بن مطرِّف القاضي المصري[2] كتاب في (النوائح)

وألف الطبري المحدث الفقيه[3] كتاب أمهات الأولاد ، وألف الشافعي كتاب (عتق أمهات الأولاد)

١٣ – ونضيف إلى ذلك فصولاً كثيرة مبعثرة في كتب الأدب خصت بالنساء وأخبارهن وصفاتهن وأحوالهن ، كالعقد الفريد لابن عبد ربه ، ونهاية الأرب للنويري ، وربيع الأبرار للزمخشري ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وغير ذلك ...

***

تلك جريدة بأسماء الكتب التي ألفت عن النساء وأحاط بها علمي ؛ ولعل هناك كتباً كثيرة غفلت عنها فلم أذكرها ولم أعلم بها[1]

أفبعد ذلك كله – وإن قلّ – تقولون إن العرب لم يحفلوا بالنساء ولم يؤلفوا في أخبارهن ... ؟

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(١) الفهرست ص ١٠٢ و ١٤٨
(٢) أنظر أخباره في ياقوت
(٣) أنظر ياقوت . ووفيات الأعيان

(١) لعل من القراء من يذكر لنا كتباً أخرى سهونا عنها ليستفيد أولئك الناس

للصراخ والعويل على ما يحاول رجال الدين الرجعيون الجامدون من حجر على العقل، وتكبيل للرأى، ومناوأة لهذه الحرية !! وتلك ناحية لا نحب أن يخلو حديثنا من الكلام فيها، إحقاقاً للحق، وإرشاداً للصواب، وحرصاً على فائدة من تعوزه هذه الفائدة من القراء

وفى «الرسالة» التالية، الصادرة بتاريخ (٤ من رجب) عرض الدكتور لحضرة النائب المحترم مفتش الوعظ، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من أجل كلمة ألقاها فى مجلس النواب، وهذه أيضاً لا نحب أن نتركها حتى نحاسب الدكتور عليها

حرية الفكر:

يظن بعض الناس أن الحرية هى التحلل من كل حرمة، والانطلاق من كل قيد، والخوض ما وسع المرء أن يخوض فى كل ما يسنح لخاطره ويستهوى نفسه! فإن بصّرهم ناصح بالصواب، أو ذاد عن حقه المتعدّى عليه ذو حق، هب أولئك الناس فى وجهه، يدقون طبول الحرب للدفاع عن الحرية المهضومة والفكر المقيد، جاهلين أن حرية الناس — إلا من العبودية لخالقهم جل جلاله — هى أول عقيدة دعا إليها الرسل والأنبياء، وأول مبدأ قام من أجله ذلك الصراع الطويل الهائل فى تاريخ البشرية بين الحق والباطل والسماء والأرض. وهل قدس كتاب أو شريعة أو أمة، ما قدس القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وسلف الإسلام الصالح، من هذه الحرية والدفاع عنها وتحقيقها فى النفوس وتقررها بين الناس؟ ومَن أولى بأن يعرف هذا الكتاب والسنة وسلف الإسلام من أعلام الله وجنود الدعوة ورجال الدين؟؟

ولكنها الحرية بمعناها الحق، وفى هيئتها التى برأها الله على سنته من الوزن والتقدير والإحكام، ومراعاة العدل والحق فى كل ما يبرأ وما يبدع، فلا يتجاوز خلق حده، ولا يخرج عن طوقه، ولا يطغى شىء على شىء فى وجوده وكنهه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا

هذه الحرية الموزونة المقدرة التى لا تجهل ولا تظلم ولا تطغى، هى الحرية التى يقرها ناموس الوجود ويعرفها العقل ويدعو إليها الدين؛ وهى الحرية التى يطلبها الناس ويهيمون بها ويتفانون فى الدفاع عنها، لأنهم يرون فيها قوام وجودهم وصلاح حياتهم، وهو بعض ما من أجله أعزها الله ومكن لها تمكيناً، فجعلها فطرة النفس وصبغة الخلق وحقيقة التوحيد

فهل سمع بهذا أو عرفه من قبل أولئك الذين يكثرون من تصنع الغيرة على الحرية والدفاع عنها، ليبرروا بها كل مخزاة، ويدّرعوا بها عند كل طغيان؟!

هل علم هؤلاء — وهم لا يفقهون الحرية إلا حيث تناوئ الدين والخلق وتقاليد الإسلام — أنهم بهذا يسيئون إليها ولا يحسنون، ويهدمونها من حيث لا يشعرون؟!

إن علماء الدين — يا قوم — لا يمكن أن يكونوا أعداء الحرية، لأن الحرية من صميم الدين، ولكنهم أعداء الفوضى وأول هادميها، وهذا واجبهم الذى لن يتخلوا عنه مهما لاقوا فى سبيله من أذى واعتداء

الرياء الاجتماعى

طالما وصف الدكتور زكى مبارك مخالفيه فى الرأى بهذا الوصف، وعلى الأخص أثناء مناقضتهم إياه فى مسألة الأغنياء والفقراء، وأسباب الفقر وأسباب الغنى، مع أنهم كانوا يستمسكون بحق معروف لم نر لهم فيه مخالفاً من القراء، وكان هو يدافع عن شاذ من الرأى لم يوافقه عليه أحد؛ وقد ظل سادراً حتى أرسل إليه القراء يخيرونه بين اختفائه من الميدان الأدبى، أو سكوته عن هذا الباطل! فهل يسمح الدكتور أن نستعير منه هذا الوصف لنصف به تصنعه الدفاع عن مصر والإشفاق عليها من تلك النصيحة المخلصة التى أسداها فضيلة الأستاذ الشيخ دراز مفتش الوعظ إلى الأمة والحكومة فى مجلس النواب؟! إننا لا نجد وصفاً أصدق منه لموقفك هذا يا دكتور. أيكون الأستاذ دراز متحاملاً على مصر وطاعناً فيها، ومقرراً غير الحق حين يقول بلسان العالم المصلح والنائب الغيور، ناصحاً أمته داعياً إلى الإصلاح فيها: «أصبحت هذه البلاد لا هى بالبلاد

إلى الأستاذ الزيات

محنة التعليم الالزامى

للأستاذ علي عبد الله

كانت كلمتك يا سيدي عن هؤلاء الجنود المجهولين ، نفحة من نفحاتك المباركة ، ونظرة من نظراتك الصادقة ، أنصفت بها هؤلاء المظلومين المكدودين ، وذكرتهم حين لم يذكرهم ذاكر ، وقلت فيهم قالة الحق في وقت بخلت عليهم فيه الوزارة بما يسد الرمق ، وحرمهم الناس حتى من كلمة طيبة ونظرة رحيمة !

وأشهد لقد وجدوا في كلامك عنهم ورأيك فيهم أحسن العزاء ؛ وإن لهم فيه لغنية إذا بخلت الوزارة بالجزاء . وقد يجد المظلوم برد الراحة في كلام من يرثى له أو يعطف عليه

وأشد ما أدهشني من كلمتك أنها كانت على إيجازها أصدق وأوفى ما كتب في هذا الموضوع منذ عرفته البلاد إلى اليوم ؛ فصورت العيوب والعلل ، وفرقت بين الجوهر والعرض ، ووازنت بين الماهية والكيفية ، وحددت المسؤولية ووضعتها في موضعها ؛ وعرفت من أمر هذا النوع من التعليم ما لم يعرفه القائمون بأمره ، ولو عرفوا بعض ما عرفت لوجدوا إلى الصواب رسولاً ، ولاتخذوا مع هذا الرسول سبيلاً ...

ومن ألطف ما رأيته أني مررت بمعلم يقرأ على بعض إخوانه ما كتبته (الرسالة) عنهم ؛ ولم يكن يقرأ من المجلة ، وإنما كان يقرأ من ذاكرته ، إذ كان قد حفظ المقال من شدة كلفه به ؛ وما انتهى من القراءة حتى انصرف إلى إخوانه يقول لهم : والله لو لم أكن معلماً إلزامياً لوددت أن أكون ذلك المعلم اليوم ! ولو لم أكن مظلوماً لتمنيت أن أكون مظلوماً ، لأن ما كتبه صاحب الرسالة أشهى عندي وأحب إليّ من أن تنصفني الوزارة أو ينصفني الناس . وإن من الخير لي أن أكون مع هؤلاء المجهولين الذين ذكرتهم الرسالة بالخير ، من أن أكون مع المترفين المجدودين الذين غمرتهم الحكومة بالمال ...

إنك يا سيدي لم تدع لأحد بعد مقالك أن يقول شيئاً ؛

الدينية ، ولا هي بالبلاد اللادينية ، ولا هي بالبلد الشرقي ، ولا هي بالبلد الغربي ؛ وذلك ظاهر في كل مظاهرها ، ليس في الزي فقط ، ولكن في الثقافة والخلق وكل ما يتصل بحياتنا الخلقية والاجتماعية » — ولا يكون الدكتور صائباً في موقفه حين يرد هذا القول ويماري في الواقع الذي يشهد له ويؤيده ، ويقر الباطل والفساد في الأمة ، متظاهراً بالدفاع المريب عنها ، والإشفاق المصطنع على سمعتها الدينية والأدبية ؟

فهل نأخذ من هذا أن الدكتور يقر ذلك الاختلاف والتناقض في ثقافة الأمة وقوميتها وأصول اجتماعها وتعدد شرائعها وأزيائها ، وغير هذا مما أجمع المتصدون للاصلاح الاجتماعي على أنه شر ما نكبت به البلاد من بلاء يجب دفعه والتخلص منه أم ماذا يريد ؟

* * *

أما بعد ، فإن من أبدى صفحته للحق هلك ، ولقد أراد الدكتور زكي مبارك أن يدفع عن نفسه ما حسبه من بعض الناس عدواناً عليه فلم يستطع هذا إلا بأن يعتدي هو على نفسه مرتين : مرة بمجافاته الحق ، وأخرى بمحاولته النيل من جماعة كبيرة كريمة كعلماء الوعظ والإرشاد ؛ وما منهم إلا يملك ما يملك الدكتور من قلم ولسان . فما أكثر في الناس من يسيء لنفسه حين يريد أن يحسن إليها ، أكان ذلك دفاعاً عن نفسه ، أم كان توريطاً لها في مأزق آخر تكون فيه أكثر ملامة وأثقل حملاً وأشد حاجة للدفاع ؟ وهل صان الدكتور بذلك أنفه الذي قام حامياً له ، أم حقق عليه المثل العربي الحكيم : « رب حام لأنفه وهو جادعه » ؟

نسأل الله أن يجنبنا مزالق الأقلام ، وفتنة اللسان والجنان ، وأن يعصمنا من خطل الرأي وضلال الهوى ، وأن يهدينا بفضله سواء السبيل

السيد رجب
واعظ القاهرة

ولكنى أحب أن أؤيد ما ذكرته عن هؤلاء الجنود المكافحين ، بما يدل على أنك كنت ملهماً تستشف الحقائق من وراء أستار الغيب ! !

فمن ذلك أن أولياء الأمر أسرفوا فى غبن هؤلاء المعلمين فخفضوا من مرتبهم جنيهاً كاملاً ، وأصبح المعلم الجديد يتقاضى ثلاثة جنيهات بدلاً من أربعة ؛ ثم جعلوا العلاوة الدورية نصف جنيه كل ثلاث سنوات . وزعمت الوزارة بهذا أنها استجابت لرغباتهم وحسّنت حالهم ووضعت لهم نظاماً للعلاوات : مع أن الجنيه الذى استقطع من رواتبهم الضئيلة أصبح لا ينال إلا بعد قضاء ست سنوات فى الكفاح والشقاء ...

وأنا أعرف معلمين قضوا فى خدمة هذا التعليم أكثر من خمسة عشر عاما ، ورافقوه وهو طفل فى مهده وما تزال مرتباتهم أقل من خمسة جنيهات . وكان هؤلاء لا يعولون إلا أنفسهم ؛ ولكنهم أصبحوا بعد هذه المدة الطويلة فى عائلات تزيد أفراد كل منها على العشرة

أقول هذا وأنا أعلم أن فى رجال التعليم الأولى من يبلغ مرتبه عشرة جنيهات وخمسة عشر وتسعة عشر ، وعلة ذلك لا ترجع إلى تفاوت فى الكفاية أو زيادة فى العمل أو امتياز بالأقدمية ؛ وإنما ترجع إلى ارتباك نظام التعليم الأولى وتعدد أنواعه ومدارسه وبرامجه ونظمه . فهناك مدارس أولية تابعة للوزارة ، وأخرى تابعة لسكة الحديد ، وثالثة تابعة لمجالس المديريات ؛ ثم هناك شىء اسمه التعليم الأولى الراقى ، والتعليم الأولى القديم ، ومشروع التعليم الأولى ، ثم التعليم الإلزامى ، ومع أن الجميع يعلمون الأطفال ولا يزيد بعضهم على بعض شيئاً فى العمل ، فإن مرتباتهم تختلف كل الاختلاف حسب أسماء المدارس التى يعملون فيها . وقد أجازت الوزارة أخيراً أن ينتقل المعلمون من مدارسهم إلى المدارس الأخرى التى ليست من درجتها ولا من نوعها ، واحتفظت لكل معلم بمرتبه ودرجته ؛ وبذلك أصبح فى المدرسة الواحدة من يتقاضى أربعة جنيهات ومن يتقاضى ثمانية . وقد يكون الأول أقدم من الثانى ، كما قد يزيد مرتب المعلم على مرتب الرئيس

ومن غريب الأمور أن الوزارة قد أسرفت فى التجنى على رجال التعليم الإلزامى ، فأصدرت منشوراً عاماً استبدلت فيه اسم المكاتب بالمدارس ، وحرمت فيه على كل معلم أن يزعم لنفسه أنه يدرس فى مدرسة ، وإنما يجب أن يكون معلماً فى مكتب عام . والمفهوم من هذا أنها استكثرت على هؤلاء البؤساء حتى الأسماء وتعمدت تحقيرهم ، بينما هى أسلمت إليهم فلذات أكباد الأمة لإعداد الجيل الجديد منها

أما قبل تنفيذ قانون الإلزام ، فقد شقى المعلمون بمحنة لم يسمع بمثلها الناس ، وهى أن المعلمين الإلزاميين كانوا يكلفون بالمرور على بيوت الفلاحين وحقولهم فى القرى ، لمطاردة التلاميذ والقبض عليهم وإحضارهم إلى المدارس . . . فمن استطاع أن يملأ فصله فهو فى أمن من العقوبة ؛ أما الذى تنهاه كرامته عن التعرض لأذى الفلاحين وعدوانهم فهو مغضوب عليه ، وقد يعرضه هذا للفصل من الخدمة

ومن بواعث الأسى أن أحد مديرى الدقهلية الأسبقين دخل عليه معلم إلزامى فى مظهر أنيق وسمات وسيمة ، يرفع إليه ظلامة من الظلامات ، فظنه الباشا واحداً من الكبراء فى البلد ، فأكرمه واحتفى به ، ولكنه عرف فى آخر الأمر أنه من الإلزاميين فشتمه وطرده ، وأقسم أن يجرد جميع المعلمين من هذه الملابس التى يظهرون فيها بمظهر أهل النعمة ؛ وبر الباشا بقسمه وساعده مفتشو المعارف اتقاء بطشه !

وصدرت الأوامر إلى جميع قوات البوليس والمباحث والخفر والعمد فى البلاد بالتفتيش على المعلمين فى المدارس والتبليغ عمن يوجد منهم غير متلبس بعمامة أو لابس قفطاناً ...

ولم يكن للمفتشين من عمل فى تلك الأيام إلا التفتيش على الجبب والقفاطين ، لا على التربية والتعليم ؛ وأصبح لبس العمامة عند الباشا من مؤهلات الترقية وزيادة المرتب ، فلم يكن يرد لمعمم حاجة !

أقول هذا وأنا مشفق من أن أذكر كل ما أعرف ، ولو شفيت نفسى بذكر الحقيقة المؤلمة ، لأبكيت الناس وأضحكتهم ، وأظهرت لهم أن التعليم الإلزامى إنما شقى بقادته وسادته ، أولئك الذين يعيشون فيه وهم عنه غرباء ، ويلقون المسئولية على المعلمين وهم منها أبرياء

« المنصورة » على عبد الله

من رسائل الصيف

الدار المقدســـة

[مهداة إلى الانسان الشاعر . .]

للأستاذ عبد الحميد يونس

أخي إبراهيم ...

قرأتُ فيما قرأت أن هناك مرآة مسحورة لا ترى فيها نفسك في لحظة من لحظات حاضرك أو فترة من فترات مستقبلك ، ولكنك تشاهد فيها شخصك في برهة واحدة تختارها من ماضيك

وأنا الآن أتمنى كالأطفال أن أحصل على هذه المرآة ، وأن أركب في هذا السبيل ما يركب أبطال الأساطير من أهوال ، فإن عبور البحر أهون من عبور الزمن إلى الوراء ، وملاقاة المجهول آلم من ملاقاة المعلوم ، واستعادة الذي كان منك ثم ضاع ، أشهى من حصولك على ما لا ترتقبه مما هو آت !...

ودعني أسائل نفسي وقد تحققت أمنية العثور على هذه المرآة « أي لحظة من لحظات ماضيّ أريد ؟ » ... هي هذه الومضة من ومضات صباي وقد ذهبت إلى بيتنا الجديد ، فلم أنظر إليه إلا بعد أن تمليت من البناء المواجه له ذي النوافذ الشبيهة بنوافذ المساجد ، وكنت أعلم أنه مقام صاحب النظرات والعبرات(1)

هذه الدار أيها الصديق أنفقت ما يقرب من خُمس قرن خلعتُ فيها صباي وسلختُ شبابي ؛ دخلتها تسابقني آمال عذاب ، وخرجت منها بذكريات أعذب !

وما أظنك نسيت البرج الذي كان يشبه أبراج المنائر حيث كنت أبشر بالطريقة الإشراقية التي تعلو على الناس وإن لم تنفصل عنهم ؛ وحيث خيّلت إلى نفسي القدرة على مطاردة الأوهام والوساوس والكشف عن الترهات والأباطيل ؛ وحيث ظننتني أستطيع هداية الضالين ، ولو كانوا من القرصان والمهربين ؛ وحيث رأيتني أحارب إله الظلام ، فلا أكاد أصرعه حتى أراه يتسلل من الناحية الأخرى !

أو نسيت الغرفة الجرداء التي كنت أستقبل فيها وفود الفكر زمراً تعقبها زمر ، وأفراداً في إثر أفراد ، والتي كنت أمثل فيها خاشعاً بين يدي الأنبياء والأولياء والقديسين ؟ وكيف تنساها وقد وسمت جمهورية أفلاطون وطوبى مور وجزيرة مكدوجال ؟

أما المقصورة ، فأنت لا تذكرها ، لأنها كانت المكان الحرام الذي مارست فيه فن الحياة ، ومهدت للقصائد التي مجت بها نفسي ولم تنفرج عنها شفتاي أو يسجلها قلمي ... وجمعت فيها بين الملائكة والشياطين ، ولقيت فيها «ليليت» وبناتها ، وأباليس في انطلاقها وفي توبتها ، وأفروديت في خلابتها ؛ وسمعت فيها أعذب اللثغات وأشهي الضحكات وأعمق الزفرات ... ! هنا ، أيها الصديق ، محنت تجاربي ، واختزنت ذكرياتي ، وحبست أوهامي ... ! هنا أديت فرائض الشاعر وشعائر الحكيم !

* * *

والخزانة الصغيرة التي كانت وكأنها « باب جحا » لا تكاد تطلب منها شيئاً حتى تراه ؟ ... الخزانة الصغيرة النفيسة التي لم يكن خادمها موكلا بغذاء البطون ، وإنما كان مختصاً بغذاء العقول والقلوب ؟ ... لقد أخذتها معي ، فبطل السحر ، وبقيت الصحائف والرفوف !

وأنت ألم تجلس معي تحت هذا المصباح ؟ أنا موجود وأنت موجود ، والمصباح كذلك موجود ؛ ولكن «التغير» صيرني شخصاً آخر ، وحولك إلى غيرك ، ونور المصباح في عيوننا الآن ليس كما كان بالأمس !

واليوم أقتلع من هذه الدار المقدسة اقتلاعاً ، فكم رددت جدرانها صلواتي ، وسمعت ابتهالاتي ، ووعت حكمتي ، وحفظت قصائدي ! وكم انشقت سقوفها عن طيف ، وانفرجت نوافذها عن خيال ، وانفتحت أبوابها حتى لعدو !

ألا قل لهذه الدار المقدسة ألا تبوح بأسرار وجداني إلا لصاحب وجدان ، وألا تطلع أحداً على خزائن تجاربي إلا إذا كان من زمرة الإشراقيين ، وألا تفتح كنوز ذكرياتي إلا لمن يصلح للقيام على البرج والمقصورة والمحراب !

(1) يقصد بيت المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي .

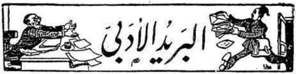
ألا قل لهذه الدار المقدسة إننى ما غادرتها قالياً ، ولا تركتها راضياً ، وإننى كلما مررت بها سأقف وأستوقف ، وكلما ذكرتها سأبكى وأستبكى ؛ وإننى — لولا التجمل — لفعلت ساعة الرحيل ما يفعل العجائز فى الأضرحة ، فقبلت المقابض والجدران !

وهكذا ترانى أيها الأخ إذا حصلت على تلك المرآة: لا أقنع من ماضى بلحظة واحدة ، وإنما أريده كله لا أنقص منه حتى ساعات الألم !

بل وهكذا ترانى إذا حصلت على هذه المرآة وتحققت رغبتى فرأيت ماضى كله لا أقنع بالمشاهدة والنظر ، فالفرق بينك وبين صورتك كبير ، والفرق بين تذكرك لماضيك وبين أن تعيش ماضيك أكبر وأكبر ...

« طبق الأصل »   « حمدي »

عبد الحميد يونس



الشيخ عباس

أويت إلى مرقدى حين الظهيرة فلمحت العدد الأخير من مجلة الرسالة فأخذته آنس بمطالعة عناوينه إلى أن يُريح علىّ النوم راحتى وجمامى ، ووقع بصرى على حديث أخى الدكتور زكى ذى الشجون والأشجان فسارعت إلى الفصل الذى عنوانه : (الشيخ عباس الجمل) أرجو أن أطلع فيه على بشرى أو فكاهة أو دعابة فقرأت ماروّعنى وأفزعنى وعزب بسرورى وراحتى وأقض مضجعى

قرأت قول الدكتور وهو ينعى على أدباء مصر تجافيهم : (فجع الشيخ عباس الجمل بغرق ابنه طاهر وهو يقارع أمواج البحر فى دمياط فما تحركت يراعة أديب لمواساته فى ذلك الرزء الجليل)

(وبترت ساق الشيخ عباس منذ أسابيع فما بكى شاعر ولا تأثر كاتب لمصيبة الأديب) الخ

فأما المصيبة الأولى فقد عرفتها من قبل وراعنى نبؤها وأنا فى اسطنبول منذ أربع سنين ؛ وأما المصيبة الأخيرة فما عرفت نبأها الفاجع إلا من كلام الدكتور زكى وقد وقعت من نفسى وقلبى موقعاً مفظعاً أليماً

وإذا بى أجلس واجماً تسير بى الذكر فى عالم من مصائب الماضى والحاضر ، وتسرح بىَ الفكر فيما أصاب الرجال الكبار من أحداث وأرزاء ، فذكرت فيما ذكرت عقبة بن أبى وقاص حينما قطعت رجله فى الموقعة يوم صفين فلبث يقاتل مرتجزاً :

الفحل يحمى شوكه معقولاً

وتذكرت هذا الفارس العربى عبد الله بن شبرة الجُرَشىّ وكانت يده قطعت فى موقعة فلطاس إحدى وقائع الروم فقال يرثيها فى أبيات أولها :

ويل أم جار غداة الروع فارقنى   أهْوِنْ علىّ به إذ بان فانقطعا
يمنى يدىّ غدت منى مفارقة   لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا

ثم إذا بى أسير إلى خزانة كتبى ألتمس عروة بن الزبير لأقرأ ما قال حين أصيب برجله ، وأتأسى بما عزاه به أصحابه ، وذكرت قول أحد المعزين له : (يا أبا محمد والله ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقى الله لنا أكثرك : عقلك وعلمك) وطلبت بقية هذا الكلام فى مظانه فلم أهتد إليه ، ولكنى وجدت فى ابن خلكان خبر عروة حين صبر لقطع رجله لا يتحرك ولا يتأوه ووجدت فيه هذه الكلمة :

وكان أحسن من عزاه إبرهيم بن محمد بن طلحة فقال له :
« والله ما بك حاجة إلى المشى ولا أرب فى السعى ، وقد تقدمك عضو من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنة ؛ وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء ، وعنه غير أغنياء ، من علمك ورأيك . نفعك الله وإيانا به . والله ولى ثوابك ، والضمين بحسابك »

يا أخانا العباس ! إن لك فى أرزاء الرجال وخطوب الزمان أسوة وعبرة ؛ وإن لك من دينك وعقلك وعلمك ما يغنيك أن تساق إليك الأُسى والمواعظ . وإنا لنعرفك كبيراً أبياً عزيزاً ، وإنا لنرجو أن نجدك اليوم أكبر وآبى وأعز من

أن يضعضعك خطب ، أو يبهظك رزء . وإنك لتعلم أن الحر الأبى يسير فى هذه الحياة صابراً على لأوائها ، مستكبراً على أرزائها مشى الجمل الثقال بالحمل الثقيل لا يرزح ولا يرزم ولا يعيا ولا يقف دون غايته

يا أخانا العباس ! إن لك من دينك وعقلك وعلمك وأدبك ما يؤنسك بالصبر والرضا ، ويوطن نفسك للحادثة وإن جلت ، والخطب وإن فدح ، وإن لك من إبائك وشممك ما يربأ بك أن تضيق بالرزء الشديد ، وتطأطئ للنازلة الجليلة

والله يجعل هذا آخر محنك ، ونهاية بلائك ويبقيك لآلك وإخوانك موفور العقل والعلم ، معافى فى نفسك وبدنك وأسرتك

وأما الأخ الدكتور زكي فقد صدق حين نعى على الإخوان تقاطعهم وغفلة بعضهم عن بعض . وإنّا يا أخى زكى — ولا تؤاخذنى بهذا التشبيه — لنسير من مشاغل هذه الحياة جليلها وسفسافها فى مثل طريق الساقية أو مدار الساقية : حركة دائبة فى مضطرَب متشابه ضيق ، لو سارت فيه الدابة أبد الدهر ما خرجت منه وإن توهمت - وهى محجوبة العينين - أنها أبعدت السير ، وتناءى ما بين مبدئها ومنتهاها . ولست أدرى إلام تشغلنا الشواغل عما هو أعظم من التقاء أخ بأخ ، وتفقد صديق صديقاً ، ومذاكرة أديب مثله ؛ وفى أولئك من قضاء الحق ومتعة النفس وربح العقل وفقه الأمور ، ما لا نجده وإن حرصنا فى هذه الحركة العاجلة التى كادت تسلب الإنسان عقله وإرادته .

عبد الوهاب عزام

حول اللهجات العامية

يقصد علماء اللغة بكلمة « اللهجات المصرية » ما يشمل اللهجات العربية المستخدمة فى السودان ، فليس السودان جزءاً لا يتجزأ من مصر فى نظر علماء الجغرافيا وأساطين القانون وعدول السياسة فحسب ، بل هو كذلك أيضاً فى نظر علماء اللغات

ولذلك لم أر ضرورة لأن أخصه بالذكر فى مقالى عن طوائف اللهجات العامية ، بل رأيت أن أعطفه على مصر ، كما يفعل الغربيون ، قد يسىء إلى الحقيقة فيشعر بأنه بلد آخر منفصل عنها

فليفرخ إذن روع الأستاذ أحمد المبارك عيسى[1] . فما كان لمثلى ، وأنا من مواليد السودان ومن أكثر الناس إيماناً بوحدة وادى النيل ، أن أغفل أمر هذا البلد الأمين

وإنا لنرتقب بذاهب الصبر أن تواتى الظروف حضرة الأستاذ المبارك فيتحفنا على صفحات « الرسالة » بما وعد به من مختارات فى الأدب القوى للسودان ، ويزيدنا بذلك يقيناً أن اللهجات المصرية كافة من أقرب اللهجات العامية إلى العربية الفصحى .

* * *

أشكر للأستاذ جودة مرعشلى بدمشق تصحيحه لما ورد سهواً فى مقالى بصدد أسماء بعض القرى السورية التى لا يزال أهلها يتكلمون بلهجة منحدرة من الآرامية الغربية .

على عبد الواحد وافى

هل نستفيد مما نقرأ ؟

المعروف فى اللغة أن فعولا بمعنى فاعل مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وأن ما يستوى فيه المذكر والمؤنث لا يجمع جمع مذكر سالماً مثل : صبور وغيور وغيور

وأذكر أنى قرأت مقالاً منذ شهور للكاتب الكبير الأستاذ العقاد بالرسالة جمع فيه غيوراً على غيورين ، وهو خطأ كما ترى .

ثم حدث أن الأستاذ السباعى بيومى جمع نخوراً على نخورين فى مقال له بالعدد ٤٠١ من الرسالة رداً على الدكتور زكى مبارك فتنبه أحد القراء لهذه الغلطة وأشار إليها فى الرسالة بعد ذلك .

وحدث أيضاً أن الأديب طه الساكت كتب منذ أسابيع كلمة مسهبة فى الرسالة عن هذه القاعدة ، وذكر الشواهد لها ، ودعا الكتاب إلى مراعاتها

وأخيراً رأينا الأستاذ العقاد يقول فى العدد ٤١١ من الرسالة : « فإن الشك فى وجود المناداة يقلق المسالك بين ألسنة المصلحين الغيورين »

(١) أنظر كلمته بعدد ٤٢٣ ص ٩٩٣

ولا شك أن إصرار الأستاذ الكبير العقاد على هذا الجمع لهذه الكلمة — وهو عضو مجمعنا اللغوى — يدلنا على أن له رأياً فيها يخالف ما أجمع عليه نحاة البصرة

فهل يتفضل الأستاذ ببيان رأيه على صفحات الرسالة فنكون من الشاكرين ؟

« بنى سويف » محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية

فتوى واستفتاء

١ — تحت هذا العنوان فى عدد « الرسالة » ٣١٨ أفتيت واستفتيت الأدباء والباحثين فى بعض المباحث الأدبية ، وعرضت لهم ما بين روايتى الوسيط والفصل من التناقض فى ترجمة ابن خلكان ، ثم استبان لى صواب رواية الوسيط ومنشأ خطأ الفصل على الرغم من أنى كنت أستبعد أن يقع مؤلفوه الأماثل فى مثل هذا الخطأ ؛ وإلى القراء البيان :

قال ابن خلكان نفسه : ومولدى يوم الخميس بعد صلاة العصر حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة إربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين رحمهما الله[1]

وقال هو نفسه فى ترجمة أبى الفضل أحمد بن كمال الدين : وتولى التدريس بمدرسة الملك المعظم بعد والدى رحمه الله تعالى ، وكان وصوله إليها من الموصل فى أوائل شوال سنة عشرة وستمائة ؛ وكانت وفاة الوالد ليلة الإثنين الثانى والعشرين من شعبان من السنة المذكورة ، وكنت أحضر درسه وأنا صغير ، وما سمعت أحداً يلقى الدروس مثله[2]

ومن هذا يظهر جلياً أنه أخذ مبادئ العلم عن شيخه أبى الفضل ، لا عن والده كما قال أصحاب الفصل ، ومنشأ الخطأ أنهم رجعوا[3] ضمير « درسه » إلى الوالد وغفلوا عن المترجم له وحق لمن استفتى ثم أفتى بعد عمر[4] أن يقول : بيدى لا بيد عمرو

(١) ترجمة المؤلف للعلامة نصر الهورينى ص ٤٢١ جـ ٢ وفيات
(٢) ص ٣٢ جـ ١ وفيات
(٣) رجعه أفصح من أرجعه ولم تأت فى التنزيل كذلك
(٤) زمن طويل

٢ — نقرأ فى كتب السيرة أن للنبى صلى الله عليه وسلم خصائص ؛ ونطالع فى كتب الأدب كثيراً من خصائص اللغة العربية ؛ ونسمع بكتاب الخصائص لابن جنى — وإن لم يره إلا قليل — فما مفرد هذا الجمع ؟ أمرضتنى كتب اللغة ، ولم تسعفنى ، ثم رأيت أقرب الموارد يقول : « والخاصة الذى تخصه لنفسك ... والخاصيّة نسبة إلى الخاصة ج خاصيات وخصائص على غير القياس » ، وفى أثناء مطالعتى فى « المواهب اللدنية » ألفيته يقول : « وقد ذكر بعض العلماء أنه صلى الله عليه وسلم أوتى ثلاثة آلاف معجزة وخصيصيَّة[1] » فما قول السيد وحيد ؟ والأستاذ الكبير (ا . ع) ؟

٣ — نبه كثير من الباحثين على[2] خطأ الافتعال من قَطَف وعابوا « المقتطف » علماً على المجلة المعروفة ؛ فما رأيهم فى قصيدة النابغة الشيبانى الفائيّة وفيها يقول :

تَسبى القلوب بوجه لا كفاء له ... كالبدر تم جمالاً حين ينتصف
تحت الخمار لها جثل تُمكِّفه ... مثل المثاكيل[3] سوداً حين تقتطف[4]

وبعد فكثير من مفردات اللغة العربية حائر بين المخطئين والمصوّبين ، فهل يضع المجمع اللغوى الملكى حداً لهذه الفوضى ؟

ط محمد الساكت
المدرس بمعهد القاهرة

حول استدراك فى غزوة حنين

ذكر الأستاذ الفاضل سعيد الأفغانى فى العدد (٤٢٢) من مجلة الرسالة الغراء استدراكا على مقالى الأول فى غزوة حنين ؛ وقد جاء فيه أن على بن أبى طالب رضى الله عنه هو الذى سئل عن الخوارج : « أكفار هم » ؟ فقال : « من الكفر فروا » . قيل : « أمنافقون هم » ؟ فقال : « إن المنافقين لا يذكرون الله

(١) ص ٢٠٦ جـ ٥ شرح للمواهب للزرقانى
(٢) نبهه على الشىء وقفه ا . هـ مختار وإنما نبهت عليها لأن مصحح الرسالة استبدل بعلى إلى كلمتى السابقة
(٣) العثكول للنخلة كالعنقود للكرم
(٤) ديوان نابغة بنى شيبان ص ١٢٦ ط دار الكتب

إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً » . قيل : « فما هم » ؟ قال : « فتنة غشيتهم »

وكنت أحب أن يذكر الأستاذ سعيد الأفغاني المصدر الذي نسب فيه ذلك إلى علي بن أبي طالب ، لأن هذا قد يفيد في تحقيق نسبة ذلك القول إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرت ، أو إلى علي بن أبي طالب كما ذكر هو ؛ فأما المصدر الذي نقلت عنه نسبة ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهو كتاب إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبية ، وهو تأليف نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي القاهري الشافعي المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ . وقد جاء ذلك في الجزء الثالث (ص ١٤٠) من النسخة المطبوعة بمطبعة محمد علي صبيح بمصر

ولا شك أن صدور ذلك القول من النبي صلى الله عليه وسلم لا يمنع صدوره بعده من علي بن أبي طالب ، والقطع بالصواب في مثل ذلك كما قطع الأستاذ سعيد الأفغاني لا ضرورة إليه ، لأن صدوره محتمل من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وليس هناك ما يمنع صحة نسبته إليه على سبيل القطع

عبد المتعال الصعيدي

القصر العيني

في العدد (٤١٨) من الرسالة الغراء ذكر الأستاذ طه الساكت خطأ الكثيرين في تسمية ابن قيم الجوزية ثم قال : « وقريب من هذا الخطأ — وإن تكلف بعض الكتاب تصحيحه — قولهم (القصر العيني) ، وإنما هو قصر العيني بالإضافة إلى الأمير الشهابي أحمد بن عبد الرحيم بن البدر العيني نسبة إلى (عين تاب) على ثلاث مراحل من حلب » اهـ .

والواقع أنني كتبت في العام الماضي عن هذا التصحيح في مجلتي « منبر الشرق » و « الصباح » الغراوين ، ولكني عدتُ فوجدت أن قولهم « القصر العيني » صحيح لا غبار عليه ولا تكلف فيه ، وذلك لأن قولنا « قصر العيني » من باب الإضافة ، وقولنا « القصر العيني » من باب النسب ، والصلة وثيقة بين الإضافة والنسب ، حتى لقد كتب الشيخ (الأشموني) في كتابه عنوانَ (النسب) ثم قال : « هذا هو الأعرف في ترجمة هذا الباب ، ويُسمى أيضاً باب الإضافة ، وقد سمّاه سيبويه بالتسميتين ... » .

فقل « قصر العيني » وقل « القصر العيني » ، ولا تضيّق على نفسك ، فلغة الضاد أفسح مجالاً وأرحب صدراً ، ولنا في لهجاتها ورواياتها وأقوال أهليها متسع ومستراد !

« البجلات » أحمد الشرباصي



مفترق الطـــــرق

للأستاذ نجيب محفوظ

زماننا عاثر الحظ أو نحن به عاثرو الحظ . فأينما تول وجهك تسمع تنهد شكوى أو تر تجهم كدر . ولن تعدم قائلاً يقول إن هـذا الزمان أضيق رزقاً وأنضب حياء وأفسد خلقاً وأقل سعادة وأنسأ من الزمان المـاضي ، ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين ، وأننا نتحامل عليه لا لعيب اختص به دون غيره من الأزمنة ، ولـكن تبرماً بقساوة الحياة وفراراً من جفاف الواقع ولياذاً بظلام الماضي الذي يشبه ظلام المستقبل بعث أمل وطب آلام . ومهما يكن من أمر هذا السخط فما من شك في أن جلال أفندي رغيب كان على حق في شكواه التي يرددها بغير انقطاع . كان مراجع حسابات في وزارة المعارف وفي السادسة والأربعين من عمره ، قد وسع الله له في إحدى زينتي الحياة الدنيا وقتر عليه في الأخرى ، فرزق ستة أبناء يعمون ما بين حجر الأم والسنة الرابعة الثانوية . وأما مرتبه فسبعة عشر جنيهاً ، فناء بأثقال العيش ومتاعب الحياة ، وقصمت ظهره المصاريف المدرسية . وكان كثيراً ما يقول متبرماً حانقاً كلما آن موعد قسط أو اقترب موسم من المواسم : « رجل مثلي — أب لستة ذكور ، اثنين في المدرسة الثانوية ، واثنين في المدرسة الإبتدائية ، وواحد في المدرسة الأولية ، وواحد في البيت ، غير زوجة وأم ، ولا تراه الوزارة حقيقاً بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف ... فمتى إذاً تجوز المجانية ! ... ولمن تجوز ؟ » . وكان كغالبية أهل هذا البلد يائساً من العدالة قانطاً من الخير ، يعتقد اعتقاداً كالإيمان الراسخ أنهما لا يصيبان إلا المجدودين من ذوي القربى والأصهار والأصدقاء ، فرأى أن ليس أمامه سوى الـكفاح الشاق ، ومعاناة الشدة عاماً بعد عام ، والتصبر على مرارة الحياة

ولبث على حاله لا يطمع في رجاء حتى تولى وزارة المعارف معالي حامد بك شامل ، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد ، وجذبت عينيه صورته المنشورة في الصحف ، فومض في أفقه المظلم بارق أمل جديد ، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به ، وقال لنفسه : « ينبغي أن أقابله ... وأن أشكو إليه ... هل يرفض رجائي ؟ ... لا أظن » ، وقصد يوماً إلى سكرتير الوزير وكتب حاجته على رقعة ليوصلها إليه ، فمضى الشاب بها وتركه في حالة من القلق والإشفاق لا توصف ؛ وعاد مسرعاً يقول لجلال افندي : « معالي الباشا مشغول جداً اليوم فلتتفضل بالمجيء ضحى الغد » ، فعاد إلى حجرته مسرعاً واجداً متألماً ، وكان ألف طوال مدة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهار المديرين ، ولـكن انشغال الوزير آلمه أكثر من أي شيء ، وجعل يتساءل : ترى هل يذكرني ؟ ... ولم يكن شيء ليصده عن هذا الباب ، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلاً حتى قال له الشاب : « تفضل » ، فقام مسرعاً خافق الفؤاد ، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف ، ونظر إلى صدر المـكان فرأى معالي الباشا كما يدعونه يطالع في شيء بين يديه ، فلما أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومد له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال :

— أهو أنت ! ... لقد اشتبه على الإسم ... أو ما تزال حياً ؟

فسر جلال للمداعبة الأخيرة واطمأنت نفسه وقال بخضوع وإجلال :

— نعم يا صاحب المعالي ما أزال أكابد حظي في الدنيا

فنظر إليه نظرة استفهام ، ومال إلى الوراء قليلاً وهو يتمتم : « أفندم » ، فقال جلال :

— يا معـالي الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيام . لي أسرة كبيرة وأبناء كثيرون ومرتبي صغير ، ولست طامعاً في علاوة أو درجة ، ولـكني أضرع إلى معاليكم أن تعفي ابنين لي في مدرسة شبرا الثانوية من المصروفات

— الاثنين معاً ؟ !

— نعم يا معالي الوزير ؛ إن آمالي مشرقة بمعاليكم ، لقد جاوزت معاليكم عهداً طويلاً من سني الدراسة ، وينبغي لمن حظي بذاك الجوار أن يربو حظه على حظوظ الناس جميعاً ، خاصة إذا علمتم أن لي غيرها أربعة آخرين ، فقال له الوزير باقتضاب :

— قدم لي مذكرة

وكان الرجل محتاطاً لذلك ، فأخرج من جيبه التماساً أعده لهذه الساعة وقدمه إلى الوزير ، فجرت عليه عيناه بسرعة ، ثم أمسك قلمه ووقع عليه بكلمة ، وقال للرجل :

— اطمئن ...

فانحنى جلال أفندي تحية ، فتكرم الآخر بمد يده له ، ثم غادر الحجرة مغتبطاً مثلج الصدر . ولكنه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة ، حتى قال لنفسه متعجباً : لم يتغير « حامد شامل » ألبتة ، ولا تقدم به العمر ، وكأنه في ريعان الشباب ... هل يصدق إنسان أن كلينا ابن خمس وأربعين ؟ ... تالله إني لأبدو لعين الناظر في سن والده ! . . . وقضى وقته يفكر في الوزير ، في حاضره وماضيه ، وفي صلته القديمة به ... ثم اضطجع بعد تناول غدائه في بيته ، وأشعل سيجارة ، واستسلم إلى أحلام الذكريات ... فألوت به إلى عهود الماضي المنطوي ...

إلى الوقت الذي كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ « حامد شامل » على مقعد واحد ، لا يكاد يفرق بينهما فارق جوهري ... وكان التلميذ « حامد شامل » يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار شعره ، وبملازمة عبد متهدم طويل يرتدي بذلة سوداء له في الطريق إلى المدرسة وفي طريق العودة ، يتبعه كالظل إذا مشى ، ويطمئن إلى مكانه إلى جانب حوذي العربة إذا ركب ، ولذلك كان يحلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه « حامد أغا » ، على أنه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتد بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأنهما أخوا حظ واحد ... والأعجب من هذا أنهما جريا معاً وراء تلك العاطفة — التي تهيج الجد والنشاط ولا تتسامى عن المرارة والألم — منذ أول عهد تجاورهما ؛ وكانا في كفاحهما كأنهما يعيشان منفردين في فصل واحد ، فكانت الغاية التي يهدف إليها كل منهما أن يتفوق على قرينه بغير مبالاة الآخرين . وعلى الرغم من استعانة حامد بالدروس الخصوصية يتلقاها على أنبه مدرسي المدرسة ، فقد كانت الغلبة بينهما سجالاً ، وكانت كفة جلال الراجحة ... وكانا في ملعب كرة القدم مثلهما في الفصل لا يريحان ولا يستريحان . وكان كلاهما يزعم أنه أحق من صاحبه بقلب الدفاع . فكان مدرس الألعاب يعاقب بينهما فيه ، حتى بدا تفوق جلال للجميع فاستأثر به ، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة . يا لله ! . . . كانا يستبقان كأنما الدنيا تضيق عنهما معاً ، وكأنما كان مستقبلهما ينذر بحرب مستعرة تشمل ميادينها الجد واللعب والإدارة والوزارة . فكيف شالت كفته بعد ذلك ؟ ؟ كيف سقط من عيون الغربال وضاع في الحثالة ؟ . . . كيف صار رفيقا المقعد الواحد أحدهما وزيراً والآخر ضارجاً بالحسابات ينوء صدره بآلام الحاضر ووساوس المستقبل !

ثم تمتم قائلاً وهو يطفئ سيجارته ويرمي بالعقب إلى المنفضة : تالله ما يستحق أن يكون وزيراً ولا وكيل وزارة ولا شيئاً من هذا ، وخشي أن يكون متجنياً عليه أو مائلاً مع عواطفه القديمة فتساءل باهتمام وجد كأنما يزمع كتابة ترجمة له كيف اعتلى كرسي الوزارة ؟ ... لقد انفصلا في نهاية الدراسة الثانوية فاضطر هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة في فمه ، إلى الانقطاع عن الدراسة والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق ، ثم حصل على الليسانس ، وكان أبوه محمد باشا شامل وزيراً للحقانية فعينه سكرتيراً له في الدرجة الخامسة ، فكانت القفزة الموفقة الأولى . وقرأ بعد ذلك في الصحف أنه اختير لبعثة في فرنسا لا يعلم كم أمضى بها ولا ما حصل عليه فيها من الإجازات ، ولكن كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات من كريمة المرحوم حامد باشا حامد الذي تولى الوزارة مرات ، فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديراً لإدارة التشريع ، وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتى علم بتوليته مديرية أسوان ، ثم بترقيته محافظاً للقنال بعد ذلك بقليل ، ثم باختياره وزيراً للمعارف ، ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلات لا تنكف عن الإشادة بمواهبه القانونية ومقدرته الإدارية

ومشروعاته عن إصلاح التعليم ، وكاد جلال افندى أن يصدق ما يقال لولا أنه قرأ مقالاً عن تفوق الوزير فى عهد الدراسة — فى العلم والرياضة البدنية معاً — وكيف أن مفتشاً من مفتشى الوزارة تنبأ له على أثر مناقشته بأنه سيكون يوماً وزيراً ، فأغرق الرجل فى الضحك ، وقال ساخراً : « الآن فهمت سر المواهب القانونية والإدارية ! »

وتنهد جلال افندى رغيب وتمتم قائلاً : « دنيا ! » ، وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلة يقلب صفحاتها المصورة ؛ والظاهر أن ذكريات الوزير كانت تأبى أن تفارقه ، فرأى صفحة من المجلة مخصصة للوزير تتوسطها صورة كبيرة ؛ ما إن بصر بها حتى صاح فى دهشة وغرابة : «رباه هذه صورة فصلنا القديم» وألقى عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف فى الصف الأول وراء المدرسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصور فى ابتسام وثقة ؛ وكان الوزير كالعابس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة ، فضحك جلال طويلاً وذكر قصة الذبابة ، وقد كانت فى الأصل من نصيبه هو وتنبه لها والمصور يهم بالتقاط الصورة فهشها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطت عليه ؛ وقد أحس أسفاً لذنب الذبابة فلعلها كانت ذبابة الحظ السعيد سكنت إلى وجه الوزير المدخر ؛ ورنا إلى الصورة بعينين حالمتين فهامت روحه فى آفاق الماضى حتى شعر بأن روح الطفولة تحل فيه مرة أخرى ، وأن شعيرات قذاله البيضاء تسود ، وتجاعيد جبينه وما حول فمه تلين ، ونظرة عينيه تصفو وترق ، ويمسح على ما فيها من هم وبلبال ... أحس قلبه يخفق مرة أخرى بالأمل والطمأنينة ، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل : ترى كيف صار هؤلاء جميعاً ؟ ... وعاين أول صورة فى الصف الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب ، وذكر اسمه (عبد الملك حنا) ، وذكر كيف كانت تنتابه نوبات الصرع فى الفصل حتى انقطع عن المدرسة ... أما بقية الصف فتذكر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصايرهم ؛ وعرف فى الصف الثانى وجهاً كأنما تركه بالأمس ؛ كان ابناً لأحد كبار المستشارين فكان يتمتع لذلك بنفوذ وصولة فيحييه الناظر إذا بصر به ، ويلاطفه المدرسون ، وقد علم فيما بعد أنه عين وكيلاً للنيابة وترقى قاضياً ، ولعله يتأثر الآن خطى أبيه الكبير . أما من يليه من الصغار فجلهم من المغمورين وبعضهم معه فى المعارف وهو يعرفهم حق المعرفة ، وأما آخر هذا الصف — الذى ينظر إلى المصور بتحد غريب ويشبك ذراعيه على صدره — فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم ، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرسين . ومن العجيب أنه احترف فيما بعد « البلطجة » ، وطاف بالسجن مرات .

وألقى نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئاً إلا الدكتور المعروف (حنا عبد السيد) ، وإلا هذا الذى يتوسط الصف الأول ، كان أنبغ التلاميذ جميعاً ، وكان أول الابتدائية ثم أول البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير الهمة سخى المواهب ، ولكنه أصيب أول عهده بها بداء الصدر فاضطر إلى ترك المدرسة والكف عن التحصيل ، واشتغل بعد ذلك بياعين كاتباً فى الصحة ... فلا يقل حظه شذوذاً عن حظ الوزير نفسه

نال كل منهم نصيبه وخضع لحكم حظه وسعيه . كانت تجمع بينهم جدران واحدة ، لا يكاد يتميز وراءها إنسان إلا بجده وخلقه ، ففرقت بينهم الحياة ، فرفعت وخفضت ، وأحيت وأماتت ، وأذاقت الفقر ، ومتعت بكرسى الوزارة ، وكل بما قسم له غير راض ولا قانع ...

ونظر جلال أفندى عند ذاك فى الساعة فوجدها تدور فى الرابعة ، فعلم أن موعد الصغار آن واقترب ، وأنهم عما قليل يملأون البيت حياة وقلبه نوراً ، فرمى بالمجلة بعيداً وطرد من عقله الوسواس ليستقبلهم أجمل استقبال ، وقال لنفسه متعزياً :

— من الخطأ أن يفكر الإنسان فى شئون الناس ما دام هذا لا يورث إلا الضيق ، وحسبى أن معاليه قال لى : «اطمئن»

نجيب محفوظ

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)